رغبات نائمة

مجموعة قصصية

بدرية الخطيب

مقدمة

"أكتب لكي أتصالح مع الأشياء التي لا أستطيع السيطرة عليها"

تيري تيمبيست وليمز

هل حقا أكتب من أجل التصالح مع الأشياء أم من أجل أن أتصالح مع نفسي أولًا، ثمة كتابة نخرج بها من قوقعتنا وأخرى تخرجنا من واقعنا وهناك كتابات أخرى تقحمنا به وأكثرهم تأثيرًا هي تلك التي نلجأ إليها عندما تخوننا الحناجر ويندثر بداخلنا الكلام .

لا أعرف ما الشيء الذي يدفعني للكتابة ولا أبحث عن سبب لفعل ذلك كل ما يهمني هو أن أظل متمسكة بهذا القلم حتى لو لم تأت كل ما أوتي بثمارها في موسم الحصاد..

هنالك مواسم يعاني منها القلم من جفاف الحبر، ومن هنا تصبح القراءة ملاذي الوحيد بها أعيش حيوات كثيرة تمنحني متسع من التخيل ثم أنها تملئ محبرتي.

لا تقرأ لشخص لا يقرأ.. هكذا أخذتها نصيحة من إحدى أقاويل العقاد، لا أعتبر كتاباتي هذه مولودي الورقي الأول ما زلت أحاول جاهدة إنجاب رواية لأشخاص لم ينجبهم خيالي أريدها من لحم ودم ثمة عظام مندثرة تحت أتربة الحياة ولربما بالكتابة تحيا من جديد..

لا أنتظر شيئًا من محصول حبري كل ما أعشقه هو الورق.. الورق العبق برائحة الحبر لأنه الأكثر خلدا.. ورقًا يحمل بين طياته كائنات خيالاتي الذين يحملون اسمي كم هو مفرح أن ترى اسمك مكتوب على كتاب لطالما عشقت القراءة والكتابة كثيرًا، فهذا العالم يمنحني بعضًا مني، ومن الحياة التي لم يسعني الواقع العيش فيها.

فالحياة لا تجمعك دائمًا بالأشخاص الذين تمنيتهم يومًا أن يكونوا بجانبك، ثمة فراق يجبرك أن تكون وحيدًا، أو مغتربًا وثمة قدر ينصب فخاخه لخطواتك فيكون فخه موطأ لأقدامك،

وحينها لن يسعك تغيره وكل ما عليك فعله هو أن تتأقلم معه وتتعايش بك أمل ضعفك بداخله..

مؤذية هي الدنيا عندما تجبرك على العيش مع شخص لا يهمه سوى تحطيمك وكسرك ويرى سعادته في تعاستك

وكم هي مؤلمة عندما تأخذ منك كل عزيز وغالي وتترك لهؤلاء الذين لطالما أفرحهم جرحك واسعدهم همك..

ومن هنا تبدأ رحلتك في البحث عن ملاذ آخر بعيدًا عنهم.. أما عني أنا فوجدت ملاذي في الورق وراحتي لا أجدها إلا في رائحة الحبر والكتب. وأفضل أوقاتي هي تلك التي أقضيها بالكتابة والقراءة.

وأكثر الأوقات متعة هي تلك التي أبحث فيها عن كل معلومة جديدة تصف حالة عشت فيها، أو شعرت بها وأجدها يخيل لي أنه انتصارًا بنكهة الفرح..

"اكتبوا حتى لو لم تكونوا من الشعراء "

بدرية الخطيب

إهداء:

لا أعرف ما سبب الإهداءات على صفحات الكتاب الأولى وغالبًا لا أرى سببًا مقنع يجعلني اكتب إهداء لشخص معين دون الآخر..، ولأن كل من يحمل هذا الكتاب الآن هو صديق، أو ربما قريب، أو حتى شخص لا أعرفه فأنا أهدي هذه الهلوسات لكل من لم يقتني هذا الكتاب..

بدرية الخطيب

حب آخر

للمرة الأولى بدأ الشك يساورها بأن شيئًا ما كان خطأ، وقفت أمام المرآة تتحسس نهديها من فو ق ثوبها الخفيف ثم خلعته وأطالت النظر على جسدها العاري، ومن هنا بدأت تتجمع سحب التعاسة فو ق ملامحها،لابأس فبعض مساحيق التجميل قادرة على صنع ملامح أخرى برغم أنها جميلة وليست بحاجة لكل هذه المساحيق المنثورة على طاولتها الصغيرة..

أحمر شفاه صارخ،الكثير من الكحل الأسود،تسريحة شعر غجرية تشبه ملامحها..عطر برائحة أزهار الغابة وأخيرًا ثوب أسود أكثر خفة من ذي قبل يفضح مفاتنها وتفاصيل جسدها الصغيرة.. حذاء ذات كعب عالي ورفيع..خطوات مثقلة نحو الباب نصف لفة للمقبض ثم تراجعت ركضًا نحو الفراش حيث الهاتف..، ومن بين قائمة الأسماء هاتفت رقم، بلا اسم وانتظرت الرد..

بصوت مرتعش: سرمد لا أستطيع الخروج لا أستطيع تحمل نظراته السخيفة أشعر بالاستياء العميق من نفسي وفي كل مرة يقتلني ذلك الإحساس الذي يهاجمني بقسوة تفقدني أنفاسي..أرجوك افعل شيئًا من أجلي حياتي بأكملها انقلبت رأسًا على عقب ولست بصدد اتخاذ قرارًا أحمقًا

الآن،أريد أن أعيش كما يعيش الناس العاديين لما كل هذا السكوت الذي يعتريك أرجوك تكلم...

- وهل أنتِ عادية يا دارين؟! أنا وأنت نزحف حول حافة ذات الصحن ولا نتذوق منه شيئًا..نتكلم سويًا لكي نجعل هذا الألم المبرح محتملًا،أعلم ما تعانيه تمامًا وأن عاصفة من الأفكار السيئة سحقت مخيلتك مما يجعلني أفقد الحس ويخيل لي أنني أبكمًا..

- سرمد أرجوك أنا في حالة مُزرية وكلما هاجمني بنظراته أرى في نفسي القاع القبيح الذي لطالما هربت منه كثيرًا كي لا أراه، أحبك أنت وأنت تعلم

-، ولكن هذا زوجك....

-تلك الزائفة الكبرى التي أعيش فيها مرارًا وتكرارًا الدائرة المغلقة التي لا سبيل للخروج منها أبدًا أخبرني بربك لما أنا هنا الآن في هذه الغرفة الكئيبة ثم إنني بعد قليل سأكون بين أحضان رجل آخر غيرك وأنا...

- إهدار أنفاسك ليس بالأمر الجيد كما أن هذا الحديث أخذ من أنفاسي الكثير.. دارين اشتريت لك بروازًا مزخرفًا بالحروف الأندلسية أعلم انك تعشقينها سأضع فيه آخر صورة التقطناها سويًا أتذكرينها؟

- نعم أذكرها بالتأكيد حيث كنا.... سرمد ألا ترى أن هذا الوقت غير مناسب أبدًا للذكريات.

-آه منك أردت فقط أن أخرجك من عتمتك، ولكن من الواضح أنك لا تريدين الخروج منها الآن، وأظن أنه بالخارج ينتظرك أتمنى لك ليلة سعيدة..

-سرمد...ألو أرجوك لا تغلق الهاتف....سرمد تبًا لك..

"السادسة مساءً في ذات المكان " حروف رسالتها له قبل إغلاقها للهاتف..نفس عميق ثم خرجت من الغرفة حيث آدم متدلي على الأريكة وسحابة من الدخان تحوم من حوله..موسيقى هادئة، إضاءة شبه خافتة..ابتسمت هي على نحو غامض تحاول جاهدة استفراغ الكلام من أحشاءها، ولكن دون جدوى..

بصوت ثمل أهلكه الخمر..

- دارين لايجب أن يكون فستانك أطول من ذلك،أحمر شفاتك، بلون مختلف هذه المرة،منذ متى وأنت تضعين الألوان الصارخة، ثم إن عطرك أربكني.. والكحل في عينيك يصرخ من شدة الفتنة أبحق الرب كل هذا لي أم أنك أخطأتِ العنوان أنا آدم... آدم... آدم..احفظي هذا الاسم جيدًا ولا تجعليه يفارق مخيلتك.

- آدم أنا.....

-ثوبك الشفاف هذا لايناسب مزاجي الآن اخلعيه.. كعب عالي!!، أريدك حافية القدمين..، بل وحافية من الذكرى أيضًا..ثمة نساء تشبه الأفاعي الناعمة، وهي تزحف على الرمال، لاتفكرين، بل إياك أن تفعلي، والآن اذهبي لغرفتك فمزاجي لا يحتمل مضاجعة أنثى عابسة..

- هل من شيء آخر نسيت أن تقوله؟
- غدا ستصلك مجموعة من الفساتين باهظة الثمن، زيني بها خزانتك
-أتعلم أنك فقير الروح،وعقلك أضيق من حذائي
-ذكريني أن أصفع وجهك في الصباح لأنني الآن ثمل..ثمل للغاية..

عودة إلى غرفتها الصغيرة..جلست على حافة الفراش وأخرجت من تحته صندوق صغير مليء بالرسائل.. رسالة فرسالة تقرأها كلمة كلمة،ثم تنهيدة عميقة وابتسامة، فهي تتقن الهرب من التعاسة إلى السعادات الصغيرة بين كلمات الرسائل القديمة التي تمنحها رئة ثالثة..

الهاتف أحد المعجزات الصغيرة التي تسمح لصوته بالعبور إليها.. للمرة الثانية في ذات اليوم هاتفته:

- كنت اقرأ رسائلك القديمة فشعرت أنني كالطير الذي ينفض أجنحته بين خيوط الشمس اشتقت لصوتك اشتقت لك
- أتممتم المهمة في هذه الليلة أسرع من كل مرة،ما الذي حدث؟
-لا شيء إنه ثمل للغاية كما أنني عابثة الوجه، وهو لايطيق مضاجعة العابسات..
- ياله من أحمق.

-سرمد توقف، لا أريد الانغماس في هذا الحديث مجددًا
-إذن أرتدي ثوبًا من القماش الثقيل الخشن تكفيرًا عن خطاياك..
- هل ستأتي غدًا أم ستفعل كما تفعل في كل مرة
-سأفعل كما أفعل في كل مرة فرؤيتك تقتلني لا أريد قتل نفسي مرتين الأولى عند رؤيتك والأخرى عند عودتك من حيث أتيت..
-أشتاقك
-لا أعرف لما كل هذا الإصرار على أن نكون كائنات تعسة..فأنا لا أستطيع أن أتجنب رؤيتك معه.. غبار الانتظار يطارد رئتي فأينما ذهبت أستنشقه، وكلما ابتعدت عنك أقع تحت وطأة الحنين فلا مفر منك إلا ويصلني إليك..صوتك بات يجرحني وبطريقة ما أصبح كلا منا يفسد حياة الآخر.
-هل يعني ذلك أنها المحادثة الأخيرة بيننا؟ لا داعي للإجابة كنت أعلم مسبقًا أن لحظات الفرح المعلقة على الأبواب المغلقة تسقط في ذات الوقت الذي نجد فيه المفتاح!!

رغبات نائمة

أنا سيئة !!

هكذا بدأت حديثها معه ثم أكملت: على جداري صورة مقلوبة لشخص لا أعرفه، أو ربما كنت أعرفه!

أنا مفلسة فاحشة الثراء امتلك كومة من الورق وقلم.. احتسي كأس فارغ في نخب الكلمات وأثمل!!

استمع لحكايات العشق البائسة التي تنتهي بالفجيعة لطالما كانت وليمة لقلمي، سيئة الغفران والتوبة وأطفئ مصابيح الدهشة إذا باغتني ضوئها هكذا أنا أشعر بالارتياح في عتمة الأشياء..

أحيانًا لا أنتظر المطر بالقرب من النافذة، ولكن يداهمني سؤال كيف له أن يقطع كل هذه المسافة لأهرب أنا منه؟!

والآن كيف لأنثى بكل هذه البلادة أن تتذوق طعم عشقك؟!

أخذت نفسا أعمق من بحره ثم أكملت الثرثرة..

أتمنى أن يكون لدي قصة، لست بطلة ورقية ولا أنت وهم، بيننا قدر ينصب فخاخه بين خطواتي وخطواتك سلب غيمتي ووضعها بسترتك..

لماذا أنت مؤلم،مربك،أعود معك عارية من الندم..
عارية من الحبر،ألتحف بورقة،أصمت كثيرًا وأثرثر أكثر..

دعني فقط حينما اشتاقك ألقاك، فأنا لا أملك من نفسي شيئا حتى أكرهك، أو أحبك،وبصوت آخر غير صوتي أناديك.

ربما قبلة عابرة بمحاذاة أنفاسي تنقذني من الغرق..، أو فنجان قهوة بين فراغات صمتك أرتشفه على مهل وانتقم للبقايا..

توقفت عن الثرثرة، انتظرت بينما هو يشعل خيبة آخري وينفث أوجاعه في صدرها..

أغمضت عيناها وهمست له كأن جسدي من وجعك يذوب....

لم أعد أشعر بذاك الألم.. نالت مني أنفاسك وغرست صمتك في خصري ثم رقصت..وهناك أمام المرايا توقفت..أفكك أزرار قميص الخوف..

الذي أرتديه.. وأعود حيث أنت،رابطة عنقك تثير شهوتي لخلعها..قميصك الأبيض يستفز الكحل في عيني..لم أشعر بيدي، وهي تتحسس مداد صدرك و..

لم يوقظني سوى صوت النبض وكأنك تخبرني توقفي هنا قلبي..

صمتك مغري تركني أواجه علامات الاستفهام والتعجب على شفتيك.. أنا ملعونة شيطاني يدفعني لعناق طويل لا ينتهي إلا على ذاك الفراش المنسي بزاوية ما في هذا المكان المعتم..

أريد قدرا يحميني من ذنب وجودي هنا..امنعني عنك أعد رابطة عنقك كما كانت، اغلق أزرارك توقف عن إثارتي..لا تنظر إلى احتراقي..

ثم توقفت عن الثرثرة ليأخذ هو حصته من الكلام..

بصوت دافئ قال: لماذا يتمنعن النساء وهن راغبات؟!

لا أنتظر إجابتك المؤجلة أتعلمين الطريق إلى سماءك مسدود، أنت فاجعتي التي لا أستطيع فهمها هذا الهواء الذي بيننا خدعة حمقاء..قفي هنا على سبيل الموت.

للحظات. شتاؤك لايفارق جسدي..انتظرت أن تبتلعي شفاة صمتي وابتلع أنا شفاة رغباتك..لماذا تتوقف الأشياء دائما بالمنتصف بين النعم والـلا.. تجمعنا رقصة الوقت خلف المكان والزمان وكأنه يفتش عن مقاسات الرجفة الأخيرة..

ثم صمت آخر وأنفاس ضلت الطريق..

بعد ساعة متأخرة من الرغبة الصامتة همست له: لا مسافات بيني وبينك على الأقل الآن!

أعلم أن أحضانك تناديني أذكر لقائنا الأخير عندما خلعت الرداء الأسود الذي كنت أرتديه، خلعته برغبتي

وخلعت كل مايليه..واستسلمت للهواء لم تكن تعنيني تلك الأضواء من حولي لست منهن اللاتي تشتعل رغباتهن في الظلام كنت أريد رؤية رماح نظراتك، وهي تخترق جسدي عن بعد..

لازلت أستمع لنفس الأغنية..ذات الموسيقى أسكنتها روحي وكلما شعرت برغبتي بك أطلقتها حولي..اليوم ستصعقك غيمتي، هذا العذاب الأنيق المستفز..

يغريني..اجعلني أتوقف هنا لأعوام ولا تمضي.. وحدك من يعلم كيف يصيبني في مقتل لا تتركني في هذا الفراغ السام..

أحتاج الكثير من الأشياء التي لم تحدث من قبل وبرغم كل ماحدث لازلت عذراء..

ولطالما تفرض علينا الحياة معايشة مالا نستطيع أن نعيش فيه،قررت أن ابتسم،أكتب، أتخيل،أحلم وأرتب اللعنات في رأسي. بداخلي حقيبة، بلا سفر وسفر، بلا طريق،وطريق لا حدود له.. لا أريد الآن سوى الافتراش على طاولة القدر عارية من كل شيء،من الندم،الوجع، ومن البكاء سأرتدي رغبتي بك . طعم الكفر في فمي عميق، الكفر بأنوثتي فكفك جدائل صبري على مهل،حدق بنهداي وعنقي المائل وشعري المجعد كغجرية فقدت شريطها المخملي،اسأل الضوء عني..واسمع النبض..

لم أنس مكانك الفارغ، أشياؤك الصغيرة أناملك التي رسمت بها الخرائط على جسدي..أريد نهاية لعذريتي أفقدني إياها..لم أعد أريد مايقيدني. كن الخطأ والصواب كن أنت القدر الأول والاحتمال الأخير..

صمتت وخلعت عنها كل القيود تركت له الفعل والكلام وبخطوات مثقلة وعين تعرف طريقها سحب غطاء فراشها الحريري ثم اقترب منها حد الأنفاس.. شفتاها كانت إله الجواب لكل الأسئلة المستعصية،رعشة أناملها،صمتها ثم جاء صوته أخيرًا..

أتعلمين فمي لا يعرف سوى القبل فمنذ اللقاء الأخير أسكنتك بقلب تلاوتي وأضعتك داخلي ونسيت مفاتيحي بجسدك ربما لرجل غيري ستكون هذه فرصته الوحيدة في استعادة مفاتيحه، أما أنا فلا أرى منك سوى جسد ممشوق بالحيرة!

تلك اللمعة الشريرة التي تسكن عيناك من أين أتيت بها؟! قلبي ليس بفاسق كان يتوسل السكينة لماذا تعلمت أشجارك الانحناء؟!

هل هذا كل ماتودين فعله أن نتكوم على الفراش وتنعمي بالمتعة الممزوجة بالألم.

عذريتك لم تكن قيدا..أنتِ قيد نفسك لما تحاولين جاهدة أن تفقدي آخر أوراقك الخضراء؟!

بحثت عنك لأنك الإجابة،لأنك الدليل لا أريد جسدك،أردت روحك،نبضك..

وبعد عناق طويل ابتعد عنها بمسافة نبضة ثم لف جسدها بغطاء الفراش ووضع قبلة على جبينها ثم جلس بمحاذاة خصرها أنفاسه بالقرب من قيد أرادت التحرر منه.

هذا الرجل يحترف الصمت في الوقت الذي تنتظر هي فيه الكلام..

لماذا تجعلني ألعن هذا الوقت الذي وقفت فيه أمامك عارية،أصغر أحلامي تختبئ تحت وسادة رأسك.

وبأنفاس ملتهبة لملمت حرائقها وبداخلها تقذف كل المشاعر، وعلى بعد خطوات ألقت غطاء الفراش في وجهه، وجلست كما تشتهي عارية بين الورق ثم سكبت الحبر على جسدها وأشعلت آخر سجائرها،نفثت غضبها على الورق وبصوت آخر غير صوتها قالت: لا بأس أقسم أننا قريبا سننتهي ففي حنجرة فيروز تذكرة سفر وفي حضن الشتاء بعض الهذيان وها هو القلم لا يعاني من القذف السريع يمارس هوايته على مهل،ورقة وتكتمل الفتنة.. سأريك كيف تكون الأبجدية عندما تسردها أنثى عارية..

دخان،رائحة عطره،إغراءه الصامت،وأخيرًا صوت فيروز " أعطني الناي وغنِّ وانْسَ داءً ودواء إنّما الناس سطور كتبت لكن بماء".

من أين أتيت بكل هذا الرماد النائم تحت عينيك؟! فك أذرعك المتشابكة مع النسيان وتذكر عندما سقطت ألف قطرة مطر على صدرك و أشعلت فيك الحنين.

خيالاتي ليست كاذبة التهمت شهوة الحديث معك بشفاهي كنت أبدو حينها أشهى بخيباتي أليس كذلك؟!

انتصرت أنت بينما كنت أنا منهمكة في هزيمة نفسي،قبلني الآن وسأمنحك بعدها عمرًا كاملا من البلادة والبرود، ألا أبدو مثيرة للغضب؟!

حتما ستقول نعم..أين رجولتك تركتها خلف الباب،متى ستفك عقدة لسانك..تعال اصفعني على وجهي ربما استفيق..

وأخيرًا بعد كل هذا الصمت أتى صوته أكثر هدوءً.. ارتدي ملابسك..لا أريد أن آخذ منك أكثر مما أعطيك، الأرق لن ينتهي والمطر لن يتوقف عن الغناء..

تائهون ونحن معًا غرباء جدا لكن أصدقاء،قاسون جدا وندعي الحنين..تعالي نكمل مسيرة الضحك على البكاء.. ادخر رجولتي لغير موعد.. لن أصفعك سأقبلك

أيكفيك هذا؟

لم يكن أعمى

إلى الرجل الذي كتب العالم
كما رآه قبل أن يصبح أعمى..
مازلت أنت كما أنت،تترك ماتبقى من الخبز للعصافير وماتبقى من وجبة غداءك للقطط.
جريدة،فنجان من القهوة لم تمل من التنقل بين مدينتين بالقطار, ولم تمل صناديق القمامة من إلقاءك للجريدة في أعماقها كل يوم . تمسك بالقلم وتلعن الورقة ثم تناديني:
أما زلت هذه اللعينة بيضاء ؟
تدعوني على مائدتك في اليوم خمسين مرة:اكتبيني!!
كيف أكتبك وأنا مصابة بفتنتك اللغوية..أصبحت أشك في أنك أعمى!!
اكتبي..سأملي عليكي.. كررها على مسمعي مرتين..
اكتبي.. الكأس أم الماء من يستيقظ أولا؟
مسافة.. اقفزي على السطر التالي ضعي إجابتك..
لم أكن أعلم أنك ستقذف سؤالا أحمقا كهذا على وجهي..
أحضرت كأس فارغ وبعض الماء..سكبت الماء وانتظرت أيهما سيتنفس أولا
ماهذا الهراء؟!
أحدهما يأكل الآخر أنا الوحيدة بين الكأس والماء التي تتنفس أنت مجنون..

اقفزي على السطر التالي..
اتركي مسافة أستطيع التجول فيها على هذا السطر..
هكذا أهرب من جحيم الكلمات الأولى..
اكتبي.. الباب بجانبها علامة استفهام كبيرة.. على ذات السطر أريد الإجابة..
لا زلت أشك في كونه أعمى ومع ذلك سطرت إجابتي " لا أمتلك المفتاح".
سطر جديد.. قاطعته تقصد سؤال آخر.. ابتسم.. اكتبي:
لما احترم تلك السيدة التي التقطتني لحظة خروجي من العتمة؟
لا أريد إجابتك اكتبي..
لأنها أول من رآني وأنا عاري..
ضحكت ثم اعتذرت.. أكمل هو.. السطر القادم أريده فارغا بحجم الهواء..

كيف يراني الآخرون؟
تلعثم القلم..
كيف لي أن أقول له إنهم يرونه أعمى
لم أتفوه بكلمة ومع ذلك قال:
تعلمي أن تري الأشياء على طبيعتها..

صفحة جديدة..
بالمنتصف تمامًا..

أرقص قبل أن أفقد صوابي

لا لا مزقيها..مزقيهـا الآن أريـد سـماع الورقـة، وهـي تبكي
بداخلي تبًا لك
صفحة أخرى..
بالمنتصف تمامًا " صلاة"
الملاهي الليلية هي ملاذي الوحيد..
عفوًا
أأكتبها.. عنوانها صلاة!!
اكتبي
الغد لن يكون أجمل، لهذا أعيش اليوم بكل ما أوتيت من لهفة
ليست مؤلمة فكرة فقدان الصخب..
صخب الأضواء داخل الملهى..
تكفيني الأصوات
ثم إنني هناك ألعن اللحظة التي تسقط فيها
قداحتي وأمضي الليل كله في البحث عنها..
هكـذا نحـن دائمًـا نقضـي حياتنـا بالبحـث عـن الأشـياء الضائعة
داخل عتمة الأشياء الأخرى..

صفحة أخرى..

توقفت هنا للسؤال الأحمق أين الصلاة؟؟
واصلي ..اكتبي
من بداية السطر..

لا أعرف من أين..
اتركي هذه الصفحة
واكتبيني..

اكتبي من نفس العمق الذي تركتك فيه..
قبل أن أكتب رميت له فضولي على ذات المائدة..
لما تركت زوجتك؟
صمتًا بمداد الجدار المجاور له.. ثم قال:
لم أعد ألحظ بريق خاتمها الألماس..
وهل كان هذا سببًا كافيًا؟
على الأقل بالنسبة لها.. نعم كان كافيًا
تبًا لكل من يحسبك أعمى بعدما كنت به بصيرًا .

نصف ضوء

كان يعلم تمامًا أن الحياة بين جدارين في شق صغير لا يتجاوز حجم أنفاسه ماهو إلا يأس يصاحبه فتات من الأمل، نوافذه صغيرة..صغيرة للحد الذي لا يجعله يرى القمر كاملًا كما كان يشاهده من فوق سطح البناية التي كان يسكن فيها قبل أن يعزل نفسه عن الجميع..

ثمة خيبات جعلته يفقد شهيته في الحياة والناس حتى هؤلاء الأقرب إلى قلبه، بات يهرب من الجميع،بحثًا عن نفسه،وودّ لو كان بإمكانه اختصار أربعة جدران إلى جدارين ونصف نافذة كي لا تتسرب الذكرى من أربع اتجاهات فتهلك أنفاسه.

جلوسه في الزاوية يمنحه الراحة، الكثير من التبغ والدخان الذي أصبح في محيطه أكثر من الهواء ويسمح لكائناته الخيالية مساحة أكبر للهو، والعبث..

يسند بظهره على الجدار صاحب الشق الأكبر ثم يغمض عيناه مستمعًا إلى صوتها الذي لم يفارقه منذ أكثر من خمس سنوات..

أمجد: أترى كيف أصبحت الحديقة كما كنت أحلم بها تمامًا، جانب للشواء وهناك في الزاوية أرجوحة زرقاء والكثير من الأزهار وهنا نافذة غرفتي أقصد غرفتنا،أتعلم

أخبرتني الغجرية ضاربة الودع أننا سنعيش سويًا مائة عام وربما أكثر،ياه كم أشكر الرب على هذا العطاء السخي سنملىء هذه الحديقة بالأطفال والفرح،البالونات الملونة ورسوماتك التي تكدست فو ق بعضها بالمخزن..أمجد، أما آن الأوان لعرضها فلوحاتك تستحق أن يراها الجميع لما أنت هكذا؟!

أمجد هل تسمعني عليك أن تخرج من هذه الشرنقة التي وضعت نفسك فيها..فأنا بحاجة لرجل ينتزع مني أحزاني ويلطخ ثوبي بفرشاة ألوانه، أرجوك كن منصفًا مع نفسك للحظات....

وهنا يختفي الصدى ويهرب لشق الجدار الذي يزداد اتساعًا في كل مرة يتذكر صوتها.. يبتسم ثم ينفض عن ثيابه ماتبقى من غبارها العابر.. نصف قمر هذا فقط ما تسمح به نافذته الصغيرة الضيقة،لم تجبره الحياة على العيش في مكانٍ كهذا، بل كان من اختيار مزاجه العنيد،رسالته الأخيرة لها كانت واضحة ولا تحمل، أي لغز يدفعها للركض خلفه، أو إعادة إحياء ما تبقى منه مرة أخرى... كانت رسالة قصيرة،أقصر من الفستان الذي كانت ترتديه في حفلة يوم ميلادها والذي بدوره انتقى لها اليوم المناسب للفراق حيث لا يمكنها نسيانه أبدًا فاحتفالاتها القادمة بيوم ميلادها ستكون ذاتها هي ذكرى لأوجاعها. تلك الرسالة التي تقوم بقراءتها كل ليلة وكأنها تعاقب نفسها بكلماته القليلة التي كتبها ذات يوم عاصف:

"عزيزتي لست أنا هذا الرجل الذي تنتظري منه أن يلون حياتك ويأتي لك بزهرة بيضاء كل صباح، أنا بحاجة للعزلة والابتعاد لا تبحثي عني كثيرًا لن تجدي ظلي فإن السماء لا تمنحني سوى نصف ضوء".

الجسر

السابعة صباحًا هو وقت مرور بكر من فو ق الجسر ليعبر إلى الجهة الأخرى حيث مواقف سيارات الأجرة التي تقل المسافرين إلى البلدة المجاورة،فهناك تنهال عليه طلبات الشاي الذي يصنعه وبرغم وجود مقهى بالقرب من سيارات الأجرة إلا أن شاي بكر ذائع الصيت..

سعدية بائعة الخبز والحظ لا أحد يمر بجانبها إلا وينال شيئًا من بركة ملامحها الجميع يحب الحديث معها برغم أنها أحيانًا توزع السباب والبسمات في آن واحد،العم بدر أقدم بائع جرائد في المنطقة بأكملها يعرف كل صغيرة وكبيرة عن الحي، الشاي والخبز والجريدة من الأشياء التي لا يستغنى عنها المسافرين..

وكأن العالم كله تجسد في هؤلاء الثلاثة..

بكر من الأشخاص المحبين للقراءة ودائمًا يستعير الكتب من كشك عم بدر،يفضل بيع الشاي على أن يعمل في وظيفة حكومية تحت رحمة مدير لا يرحم.. في كل صباح هو على موعد مع ابتسامة سهر تلك الفتاة السمراء التي يناديها الجميع بـ وردة لأنها تبيع الورد بينما بكر يعشق اسمها الحقيقي سهر ولا يناديها إلا به..

سعدية أم وزوجة وحيدة برغم أنها أنجبت خمس أولاد، فجميعهم سافروا إلى حيث لا تدري..زوجها لا تعرف عنه شيء منذ أكثر من عشر سنوات ومع ذلك لم تتزوج ولم تنشأ علاقة مع أحد..

الجسر هو الوسيلة الوحيدة التي يعبر منها الجميع إلى صخب سائقي سيارات الأجرة،ومشاجراتهم التي لا تنتهي، ولكن قلوبهم بيضاء فبعد كل مشاجرة يشربون الشاي من يد بكر ويأكلون من خبز سعدية..

عابد سائق السيارة البيضاء له من سوء الحظ نصيب لابأس به.. فكل من يستقل سيارته هم من طلبة الجامعات والذي لا يفهم أغلب حديثهم المحشو بأوضاع البلد وأشياء أخرى.. يجمع أحاديثهم ليضعها في سترته وفي آخر النهار يجمع السائقين حوله ويخرج ما بجعبته من أحاديث الطلبة ليتفاخر بنفسه أمامهم، ومن خلفهم يطلق بكر ضحكاته الهستيرية على عابد والذي بدوره يغمز له كي لا يكشف أمره أمامهم..

هنا تأتي سهر وتجلس على الرصيف بجانب بكر وبصوتها الناعم تخبره عما حدث معها طيلة النهار..

- بكر اليوم كان سيئ لم يشتر أحد مني وردة واحدة، جئت كما ذهبت عدا أن الورد قد ذبل مني في الطريق ولم يعد يصلح للبيع مرة أخرى.

- أتعلمين يا سهر أنه من المحزن ألا يشتري الناس الورد،أنتِ تبعين ورودك بالمكان الخطأ
-كيف؟؟
-هنا سائقين ومسافرين وبعض العابرين، ولكن الجسر بعد الخامسة عصرًا يصبح المكان المفضل للعابثين بالعشق ارمي عليهم سهامك.
- لم أفكر أن أذهب إلى الجسر ربما لأنني جديدة هنا في المكان،بكر أتعلم أنك منحتني بعض الأمل بعدما فقدته..
- لا أريد رؤية سهر حزينة مرة أخرى..

نهاية يوم شاق للجميع.. المكان شبه خالي عدا كشك الجرائد..العم بدر يقوم، بلملمة الكتب والجرائد وهنا يقفز بكر لمساعدته وكالعادة يخطف كتاب ويتفقد صفحاته ثم ينظر للعم بدر ويقول:
- عم بدر...
- أعلم ستأخذ الكتاب معك وتقرأه ثم تعيده لي عندما تنتهي منه،ولكن الغريب انك تعيده في الصباح متى تنام، ومتى تستيقظ هذا ما أريد معرفته،بكر على ما أظن أنك تخرجت من الجامعة هل يعقل وبعد كل هذا العناء أن تقوم ببيع الشاي،مكانك ليس هنا يا بكر..كما أنني سمعت من البعض أن صاحب المقهى مستاء منك ويريد إبعادك من هنا لأنك سرقت منه زبائنه على حد قوله، هذا الرجل فقير عقل ولا يجيد التعامل إلا مع البهائم..

-لابأس ياعم بدر أنا أيضًا أجيد التعامل مع البهائم وأصحابها لا تقلق بهذا الشأن.. كنت أريد سؤالك عن عابد

- عابد عقله صغير، ولكن قلبه كبير يحب التحدث في الأشياء التي لا يعرف عنها شيئًا سوى آراء الآخرين بها، أغلب من يستقل عربته هم طلاب الجامعة لذلك كل ثرثرته تدور حول مايحدث في البلد يضحكني، وهو يسردها على السائقين بطريقته الساخرة،بالمختصر من يريد أن يضحك من قلبه عليه أن يجلس مع عابد فأنا ألقبه بـ صانع الضحكة..

في صباح اليوم التالي يبدو كل شيء كما كان بالأمس عدا تأخر سهر عن موعدها،يأتي بكر حاملًا معه كوبا مخصوصا من الشاي للست سعدية..بينما هي تمد له يديها بـ رغيف من الخبز الساخن مع ابتسامة عريضة يتسرب منها تحايا الصباح..

-يسعد صباحك يا بكر

-وصباحك ياست سعدية وصباح الرغيف السخن..رغيف الخير

- بكر سأزوجك

- هكذا على صباح رب العباد،شكرًا يا ست لا أريد الزواج

- اصغي لي أنها جميلة

-وماذا ستفعل الجميلة بسيد الحظ السيء بائع الشاي؟

وبلهجتها الفلاحي انطلقت منها سبابة عابرة مع ابتسامة قصيرة مما جعل بكر يضحك بصوت عالٍ..فيأتي عابد من خلفه

-علام تضحكون..شاي و خبز ساخن ثم مد يديه في صندوق صغير بجانب سعدية وخطف منه قطعة من الجبن الأبيض، ألعن هذا اليوم الذي لا يبدأ بخبز سعدية وكوب شاي من يد بكر..لم تخبروني علام تضحكون..

رد بكر بابتسامة: الست سعدية تريد أن تزوجني وأنا لا أريد

- أنت نحس،زوجيني أنا يا ست سعدية شرط أن تكون مثلك ويااليت لو تكون أنت العروس فضحكت سعدية وبكر معا..

وفي هذه الأثناء مشاجرة كبيرة بجانب كشك عم بدر مما جعل بكر يركض ليطمئن عليه،

ترك عابد كوب الشاي وسقط منه الخبز على الأرض ليركض خلف بكر.. ينظر خلفه وينصح سعدية بالبقاء مكانها حتى لا تتأذى..

المشاجرة هذه المرة قام بها أشخاص من خارج الحي لا أحد يعرفهم،تسابق السائقون في فضهم، ولكن دون جدوى.. وبين أصواتهم العالية تأتي صرخة عابد عندما شاهد بكر وتبدل ثيابه، بلون الدم،أحدهم قام بطعن بكر عدة طعنات مما أفقده وعيه.. فرّ الجميع عدا السائقين والباعة

المتجولين في المكان وفي هذه الأثناء جاءت سهر راكضة بملابس ممزقة من كل جهة وخدشات متفرقة على كامل جسدها، وهي تصرخ.. بكر..بكر.. بكر اغتصبوا الورد يا بكر وتركوا لي الشوك..بكر لا تتركني الآن..

صمت من الجميع وتمتمات من عم بدر..أخبرته أنه مستاء منه لقد أخبرته أنه لا يجيد التعامل إلا مع البهائم لماذا يا بكر.. لماذا أنت يا بكر

نظرات عابد يملؤها الوجع..وسعدية تبكي حظها فبعدما رزقها الرب بابن سادس لم يأتي من أحشاءها، بل من أحشاء الأيام،طعنته الدنيا ليتركها وحيدة كما كانت..

حتى الجسر الذي يعبر عليه الجميع بات ملطخًا بعذرية سهر ومبلل بعرقها،هذه البلدة تشبه الوطن فكل شيء فيها مغتصب ومغموس بدماء الأبرياء.

سعادة مؤقتة

آدم أول شخص يرد إلى ذهني بعد كل تلك الغيوم والأشباح التي خيمت لفترة من الزمن فو ق رأسي،لا أتذكر جيدًا، ولكن مازلت أذكر هيئته وصوته لمساته، ذاكرتي تؤلمني عندما تفقد كل مابداخلها في لحظة واحدة بسبب هذا الحادث اللعين،لم يعد أمامي سوى كتابة كل ما أتذكره في ذات الوقت حتى لا أنسى..

الكثير من الورود كارت قديم مزخرف وصغير بداخله تاريخ ٢٠٠٢/٤/٢٠ لا أذكر شيئًا عن هذا التاريخ، زوايا المنزل لا تذكرني بشيء عدا تلك الأصوات التي أسمعها وأنا نائمة. استيقظت كثيرا للبحث عن مصدرها، ولكن دائمًا ما كانت قدماي تقودني نحو المطبخ لأقوم بإعداد كوب كبير من القهوة في الثالثة صباحًا وإذا بصوت زياد من خلفي:

- هل أخبرك أحدهم من قبل أنك مجنونة

- هههه نعم الكثير،بل ربما الجميع،من أنت

- شخص يحبك أكتبي هنا على هذه الورقة " زياد حبيب قلبي"

- هل حقًا أنت حبيبي؟

- رجل يتقاسم معك الفراش ويستيقظ على صوت خلخالك في الثالثة صباحًا ليجدك بالمطبخ تعدين القهوة، لا يجب أن يكون شيئًا آخر غير أنه حبيبك..

- أخبرني عني قبل أن نكون سويًا، كيف تقابلنا وأين

- حبيبتي لقد أخبرتك عشرات المرات بهذه القصة،عملي يبدأ في السابعة صباحًا والآن تخطت عقارب الساعة منتصف الليل بأكثر من ثلاث ساعات أنا بحاجة للنوم،وأنت معتادة على شرب القهوة في مثل هذا التوقيت الغريب ثم إن هذا الدفتر يحمل كل ذكرياتك الثقيلة.. تصبحين على خير.

اسمه زياد، ومن هذا الذي ترتديه ذاكرتي الآن آدم من أنت يا آدم؟

* الدفتر وعودة لأشياء لا تذكر منها حتى القليل ثمة وقت نضيع فيه داخل تلابيب الذاكرة البعيدة نجلس على شواطئها نغمس أصابعنا داخل الرمال الرطبة ونمدد أقدامنا لترتطم بأمواج البحر نفس عميق أعمق بكثير من ذكرى لا نتذكر منها سوى رائحتها.

الصفحة الأولى...

تشرين ورائحة الأزهار لا يبدو على السماء ولا على الناس أنه فصل الربيع ثمة خريف مخيم على أعشاشهم،

الشجر وأغصانه أول من ألجأ إليهم عندما يتعلق الأمر بالظل.. الظل الهائلُ الذي تصنعه شجرة الصنوبر هذا الجذع الكبير يذكرني بشيء رائحة الشجرة تيقظ بداخلي شيئًا ما،هذا البيت الصغير ونوافذه الصور المعلقة على جدرانه، كل شيء هنا يذكرني بشيء تائهة من ذاكرتي..

الصفحة الثانية

الرابعة والنصف عصرًا وقت مناسب لخلع معطف الحنين، اليوم يحمل في طيات ذاكرته تاريخ هام جدًا حيث الماثلة أمام الورق الآن خرجت لهذه الحياة.

الصفحة الرابعة ممزقة والخامسة فارغة أين ذاكرتي كل هذه المسافة التي سقطت مني عما تتحدث أين أمضيت أوقاتها..

عودة قصيرة للذاكرة..لم أتوقف عن هذا الهراء الرابعة صباحا مع ذات الكوب كيف لي أن أرتشف القهوة في مثل ذلك الوقت،ابتسامتي لا تضل الطريق يوما.. كان يجب علي ألا أنسي هذا اليوم ٢٠٠٦/٤/٢٠ اليوم أكمل آدم عامه الرابع أنه الحياة..ورقة صغيرة و وردة كبيرة من المزهرية.. ابني الصغير آدم كل عام وأنت بداخل قلبي ستصبح يوما طبيبا كما تتمنى ذكرني في الصباح أن أحضر لك هدية لأنني حتمًا سوف أنسى..

الحيـاة القصـيرة التـي تمنحهـا لهـا الـذاكرة هـي ذاتهـا سـعادتها المؤقتـة التـي تعـيش فيهـا وتنسـاها سـريعًا لـذلك تمضي كل يوم بـذاكرة جديـدة ورقـة داخـل دفتـر.. سـطر يحمل عِبْءُ الكلام وسطر آخر يحمل أنفاسها.

حياتهـا قصـيرة، ولكنهـا سـعيدة ثمـة نسـيان نتعـافى بـه وآخر نشقى منه!

عطلة الأحد

إدوارد ليس هو ذلك الرجل المناسب لك،

قالها لي أبي بينما كان مستمتعًا بتناول اللحم المقدد مع احتساء النبيذ الأحمر،ثم أكمل..حياة البرية لا تناسبك أرسلتك للمدينة لإتمام دراستك وإبعادك عن رائحة الحطب المشتعل وكفوف الحطابين المتشققة..

لن تتحملي صمت الحطاب،حزنه،تعاسته،عزلته،سعادته،ولا حتى ثرثرته، وهو مخمورا..

سيكون بعيدًا عنك طيلة الشتاء فالفأس تستعيد أنفاسها في ليالي البرد، الحطاب والبرية كما السمكة والبحر، الفأس هي أنثاه تنام بين أحضانه وسط كومة من الأوراق الجافة التي سقطت من ضحاياها..

أعلم أنك تفضلين المكوث في كوخ جدك القديم بجانب النهر،أقضي نحو ساعتين للوصول لأقرب قرية لأبتاع لك بطاريات مشغل الموسيقى خاصتك والسكاكر التي تفضلينها،والدتك وجدتك يستمعون لأغاني الحطابين والناي. يخبزن الفطائر داخل الفرن القديم الذي بصقتي عليه لعناتك عندما أحرقت يداك وأنت تلتقطين منه واحدة من الفطائر..

أعلم أيضا أن يداك ملطخة بالأزهار بينما نساء القرية يلطخن أيديهن بطين الوادي، ماري لست رجلًا صالحًا ولا فاسدًا،لا شيطانًا ولا ملاكًا أنا حطاب..

تذكري وأنت ترتدي حذاءك الرياضي أن والدتك لا زالت تذهب لصانع الأحذية بالقرية المجاورة لسنا فقراء، ولكن هذه هي حياتنا،نحبها كما هي لا نريد أن نغير فيها..

أدرك أنك الآن تتساءلين لما كل هذه الثرثرة لأنني على علم بأنك أحببتي المدينة بصخبها،أغانيها المجنونة ومأكولاتها السريعة..

ذات يوم أحبتني امرأة (كاثرين) جنت بحياة البرية وأشجارها عشقت الكوخ والنهر،متيمة بأشجار الصنوبر كانت تنظر بشغف للغيمات الرمادية وتتساءل هل ستمطر؟؟

أحقًا سنركض سويًا نحو الكوخ ولم تكمل حديثها إلا وانهمر علينا المطر بكل قوته ثم بدأت بالصراخ أحبك جون أنا أحبك وبينما كنا نركض هربًا من غضب السماء،سقطت على العشب المبلل وتلطخ فستانها الزهري بالوحل ضحكت أنا كثيرًا فغضبت مني ومدت لي يداها لأسحبها فجذبتني بكل قوتها حينها سقطت بجانبها وأخذت هي حصتها من الضحك،ضحكاتها صوت المطر،وشعرها المبلل كان الأكثر تحريضا على تقبيلها ومعانقتها، دفعتني وركضت نحو النهر خلعت حذاءها ثم فستانها وغسلتهما في المياه وأنا خلفها أختلس النظرات على جسدها

العاري،مرت من جانبي، وهي تحمل فستانها المبلل بيد وبالأخرى تحمل الحذاء حينها توقف المطر وكاد قلبي أن يتوقف لأول مرة أرى أنثى عارية تمامًا.. علقت فستانها على غصن الشجرة المجاورة للكوخ طلت علينا الشمس وكأن شيئًا لم يكن..

دعوتها للجلوس داخل الكوخ، ولكنها رفضت وفضلت الجلوس عارية، كانت هادئة مستسلمة لجبروت الطبيعة من حولها أما أنا حملت الفأس وبكل قوتي قطعت الغصن الثاني من الجهة الأخرى للشجرة، صرخت في وجهي جون هل جننت أم ماذا كيف لك أن تفعل ذلك؟ انظر على الأرض لقد أسقطت عش العصفور..

أنت رجل قاس هل تعرف كم أمضى العصفور في بناءه هل تعرف كم صمدت أجنحته أمام الريح لتأتي أنت بكل حماقة وتطرحه أرضًا بضربة فأس!!

لم أكن أبالي بكل ماتقوله فأنا دائمًا أسقط أعشاش العصافير من فو ق الأغصان لا أعرف ما كل هذا الغضب الذي أحل بها مجرد عش فارغ لعصفور مهاجر تبًا.

العشق في هذه البلدة تمامًا كمخبوزات جدتك يشتم الجميع رائحته من على بعد أميال لقبني الجميع بـ جون العاشق هادم أعشاش العصافير..

أبي لم يعجبه الأمر فاتفق مع صديقه ألبرت أن يأخذني معه برحلات الصيد التي يقوم بها والتي تستغرق أكثر من

شهرين ليبعدني عن كاثرين كان يخبرني دائمًا أن فتيات المدن لا يتحملن معاشرة الحطابين..

رحلة..

سعادتي بحكايات أبي مع البرية وعشقه القديم كانت أكبر من أن تكتب على الورق،كاثرين العشق الأول، وكيف له أن ينسى؟!

الغيمات..المطر والكوخ غصن الشجرة وأعشاش العصافير..العشب الرطب والنهر هذه البلدة هي العشق كيف له أن ينفذ وصايا جدي معي بينما رفضها هو ذات يوم؟

النبيذ الأحمر يدفع أبي للثرثرة وإخراج كل ما هو مدفون ببئره..يثمل، ولكن لا يترنح..يفرش أوراق الذكرى ويخطو عليها.. اليوم كان أكثر هدوء أما أنا فكنت أكثر شغفًا للاستماع إليه.

بدأ حديثه معي ب:ماري ابنتي الوحيدة المدللة "الرحلة" رحلة الصيد، أخذني أبي على غفلة مني حتى أنني لم أستطيع توديع كاثرين آنذاك، ذهبت مع العم ألبرت مركب صيد كبير فجأة أصبحت صياد على قيد حياة الحطابين،كنت أنظر على مداد النهر كالمجانين علّني ألمح كاثرين على الأقل أشعر أنني ودعتها، لم يحالفني الحظ في رؤيتها مزاجي على المركب كان سيئًا للغاية وفأسي لا

تفارقني فمنذ اللحظات الأولى على المركب وأنا أشتاق لرائحة البرية وأشجار الصنوبر اشتقت لنظرات كاثرين المجنونة شعرت بقسوة الغربة بعيدًا عنها.كل شيء على المركب كان يثير اشمئزازي أنا لا أحب السمك ولا أحب رائحته النتنة،أبي كان يعلم ذلك جيدًا ومع ذلك كان يعاقبني برحلة صيد.

في يوم وليلة أصبحت في منتصف الماء بعدما كنت بين الشجر شعرت بجوع الفأس وصراخها ليلًا كنت أحتسي الشراب في الليل والنهار مهنتي الوحيدة على المركب هي ترتيب قوارير الخمر واحتساء الكثير منها..وصايا جدك لم تبتعد عني كثيرًا فالعم ألبرت كان يقوم بتوبيخي بدلًا من أبي..

الأيام كانت تمر ببطيء كاثرين لم تفارق مخيلتي للحظة ورائحة خبز امي،كفها الحنون، صوتها وأغانيها كل شيء أصبح بعيدًا عني ستون يومًا لا أعرف كيف مضت، ولكنها مضت..

تعلمت الكثير من العم ألبرت ففي هذه الرحلة قام بتهذيب الحطاب ومنحه صبر الصيادين، في اليوم الثاني بعد الخمسين ترك لي شبكة صيد معقدة وأمرني بحل عقدها..كانت كثيرة العقد لم أحتمل قط وتساءلت كيف للصياد أن يتمتع بكل هذا الصبر في حل العقد ولماذا في هذا الوقت بالذات أسند لي هذه المهمة؟؟!

أحضـرت قـارورة الخمـر بجـانبي ورتبـت ذكريـات الوادي،البريـة وبعـض أحاديـث العصـافير..نفسًـا عميقًـا ثـم احتضنت الشبكة اللعينة وأقسمت لها أن أخلصـها مـن تلـك العقد.

أكثر من سبع ساعات مرت وأنا جـالس يلفحنـي الهـواء ورائحـة النهـر والسـمك التـي اعتـدت عليهـا بعـدما كانـت تصيبني بالغثيان..

من خلفي صوت العم ألبـرت: جـون هـا أنـت ذا أنهيـت المهمة بنجـاح كنـت ثمـل للغايـة ولا أعـرف عمـا يتحـدث، فقال لي انظر للشبكة لقد فعلتها.. ألقيـت عليهـا نظـرة ثملـة سعادتي في تلـك اللحظـة لا أسـتطيع وصـفها..طيلة الوقـت ومخيلتـي مزدحمـة بالأشـجار والعشـب الرطـب لـم أفكـر للحظة في أمر الشبكة التي كانت بين يدي..

أدركت أن الإنسان لا يشعر بجمال الأشـياء طالمـا أنهـا بين يديه.

"عودة"

اللحظة التي رست فيها المركب علـى نهـر القريـة هـي ذات اللحظة التي عاد فيهـا نبضـي..كنت أركـض وأصـرخ هأنـا عـدت هأنـا هنـا آه يـا رائحـة الشـجر، ارتميـت بـين أحضـــان الشـــجرة العتيقـــة المجـــاورة للكـــوخ قبلـــت أغصـانها،ألقيت نفسـي علـى العشـب، سـتون يومًـا مضـت

قضـيتها مـع السمك،الصـيادون هـادئون. هـادئون للغايـة افتقدت صـراخ أخـي مـع الحطـابين و ثرثرتهم،ضـحكاتهم وهم مخمورين،كنت بحاجة لاحتضان الهواء فجأة تـذكرت أمي.. أبي وكاثرين..

فرحتي بالعودة لم تكتمل فحينما ذهبـت للبيـت أخبرتنـي أمي أن كاثرين ذهبـت بعـدما رحلـت أنـا مـع العـم ألبـرت، اعتقدت أنني تخليت عنها وتركتها، ومنـذ ذلـك الحـين وأنـا أخوض المعـارك مـع أبـي وتمنيـت كثيـرًا لـو أننـي لسـت حطابا.

طلبت منه كثيرًا أن يدعني أذهب للمدينة حيث كـاثرين، ولكنه رفض بشدة لم يكن أمامي سوى الرسائل ثلاثة أشهر وأنا أسطر لها دون جدوى..أصابني الملل توقفت عن كتابة الرسائل ثم اعتـدت الأمر..انتظرتهـا شـهور كـان عليهـا أن تأتي في إجازة الصيف ولم تفعل..ثم اعتدت غيابها وانتهـى الأمر.

"شجرة التوت"

سوف أعبر إليك..

قالتها، وهي تغني للنافذة..
بعدما نزعت القناديل من فو ق أغصان شجرة الميلاد..

بينما هو كان منهمكًا بإعداد الشاي على الحطب في الجهة الأخرى..

وصوت أبيها يتسلل من خلفها..

ماري

كان يجب على الفأس أن يعتذر للشجرة!!!

بعدما أفقدها ساقها الوحيدة،

فمنذ سنوات عبرت للجهة الأخرى مع الحطابين كنا نمارس الألعاب الغامضة المخيفة بين الأشجار

نختبئ خلفها وأحيانًا من شدة الخوف نحتضنها.

أخي كان مخمورا وبيده الفأس،

صدى ضحكاته الصاخبة كان يعبر مع الهواء يرفعها لأعلى بكل قوته،

ثمة شيئًا لا أعرفه جعله يبكي كالصغار عندما سقطت الشجرة على الأرض..

مرددا أمي أرجوكِ لا تتركيني هنا وحدي لم أكن أقصد إيذاءك

حينها ضحك الجميع بهستريا..

أما أنا تركتهم وذهبت لأنحت اسمك على شجرة التوت ..ماري

ابنتي الوحيدة المدللة لا تحبي رجلا يقطع الشجر!!

أبي.. ولكني فعلت..أحببت رجلًا يقطع الشجر،إدوارد يحبني..أنا لست كاثرين ولا كاثرين تشبه ماري أنا ابنة البرية ابنة جون الحطاب لست من فتيات المدينة .

أحببتها حقًا، أدهشني الزحام،المقاهي، أضواءها الثائرة أحببتها، ولكن لا أستطيع العيش فيها طيلة أيام حياتي.. أنا ابنة العشب،ابنة الشجر والنهر كيف لي أن أترك هذا الطين الذي غرست فيه أولى بذوري أخبرني أنت كيف لي أن أترك هذه الجنة.. أبي ماري ليست كاثرين!!

لا تفرق بيني وبين إدوارد هناك غيمات تنتظرنا على الضفة الأخرى من النهر هو مثلي يعشق البرية لم يكن ذنبه أبدًا أنه احترف مهنة أبيه كما فعلت أنت..

خمسة وتسعون دقيقة

على نصف مقعد داخل القطار وبجانب النافذة جلست أنثى شاردة لا تحمل الكثير من الحقائب فقط حقيبة يديها المزدحمة بأوجاعها..

فضولي يقودني لتفحص ملامح المسافرين الذين يفضلون الجلوس بجانب النافذة فهؤلاء يحملون من الحكايات مايحرضني على الكتابة وأحيانًا على البكاء.

العربة الأولى،المقعد الثالث من اليمين.. (حنان)

تخطت الثلاثين بأربع خيبات ملامحها هادئة طفولية لحدّ ما كلماتها قليلة.. أهلًا، ابتسامة قصيرة ثم عودة للنافذة والشرود..تعرفت عليها بالمقهى المجاور للمحطة جلست أنا على المقعد الخلفي بجانب النافذة أيضا ولم يمضي على جلوسي سوى بضع دقائق إلا وصوت إحداهن:

أحلام اسمي أحلام خمسة وثلاثون عامًا مطلقة (الحالة المرعبة) كما لو كنت أخبرهم أنني راقصة أتعلمين لو أنني حقًا راقصة كنت سأحظى ببعض الاحترام وربما الشهرة،سبب طلاقي هو..... حتى أنني أجهل السبب الحقيقي للطلاق والزواج أيضا،فجأة ارتديت الثوب الأبيض فرحة مؤقتة ساعتين رجل لا أعرف عنه سوى اسمه،عمره وعنوانه..بعد الزواج بشهرين اكتشفت أنني الثانية ولست الأولى كما ادعى، الشقة التي أوهمني أنها

ملكة ليست كذلك مجرد شقة نجلس فيها تحت التهديد بالطرد في، أي لحظة حياة غير مستقرة زوجة ثم مطلقة في أقل من ستة أشهر والآن أنا أعمل بإحدى الشركات،صديقاتي يحدثونني بالتخفي خوفا من أزواجهن وكأنني مصابة بمرض معدي..

لم تنتظر حتى لأواسيها غادرت المقعد ثم ذهبت لآخر العربة وجلست لم أكن أعلم أنني سأكون الوعاء الذي يفرغ فيه العابرين أوجاعهم لم أتأثر كثيرًا بقصة أحلام ففي هذه البلدة أكثر هن أحلام!

كل ما أريد الوصول إليه (حنان) ملامحها تحرضني على الكتابة ليتها تتكلم..

بعد مرور عشرون دقيقة من الصمت يأتي من جانبي صوت خشن:

مساء الخير أحمد عبد الحفيظ مهندس ٢٩ سنة،فقير ليس تمامًا لدي مال يكفي لوجبتين غداء تتزوجيني؟؟

لم أندهش قط، أضحكني هذا الرجل سمحت له بالجلوس على ذات المقعد شرط أن ينسى تمامًا أمر الزواج..

(أريد فقط تعويض العشرون دقيقة الماضية) في الاستماع للعابرين أفضل من قراءة سبعين كتاب (على الأقل بالنسبة لأنثى مثلي تبحث عن وليمة لقلم جائع).

تركت له مساحة ليبدأ هو بالكلام، ولكنه لم يفعل لست فضولية للحد الذي يجعلني استفزه بسؤال، عشر دقائق أخرى ذهبت برفقة الصمت..

بصوت مرهق قال:

أستقل القطار كل يوم في الصباح والمساء التنقل بين مدينتين أمر مرهق أمتلك سيارة، ولكن أفضل القطار....

ثم أغمض عينيه وغط في نوم عميق كما لو أنه كان يحكي لنفسه حكاية ما قبل النوم..

لا شيء لديه يستفز هذا القلم ما زلت في انتظار (حنان)..

المهندس أحمد عبدالحفيظ لا أعتقد أنه سيتزوج،الأصوات التي يصدرها أثناء نومه كفيلة بإيقاظ الكتيبة ١٠١ بسيناء

تركت له المقعد كاملًا في تلك اللحظة لوّحت لي حنان، وهذا هو ما أريده..

الجلوس بجانب الهدف دون الوصول إليه شيء مؤلم.. حاولت مرارًا أن أبدأ معها الحديث، ولكن كيف لي أن أفعل، وهي تقرأ..

"ثرثرة فو ق النيل" لنجيب محفوظ..أخبرت نفسي أن (حنان) هي الوليمة التي ستسد جوع القلم. ثم إن هذه الرواية بالذات أعشق قراءتها وخاصةً شخصي(أنيس زكي) ربما تكون هذه الرواية سببًا مناسبا للحديث معها..

- نجيب محفوظ رجل عبقري
حنان: حقيقي
- شخصية أنيس زكي.. رجل كثير التفكير لدرجة أنه ليس لديه الوقت ليختلط مع الناس أو يتحدث معهم،موظف يسير بالشارع بينما يتحدث مع نفسه ساخطا على المجتمع والحكومة شخصية تستحق الدراسة..
حنان: أنا أسميها رواية المساطيل المثقفين.. اقرأ لك جزءً:

(أبريل, شهر الغبار والأكاذيب, الحجرة الطويلة العالية السقف مخزن كئيب لدخان السجائر. الملفات تنعم برائحة الموت فوق الأرفف. ويالها من تسلية أن تلاحظ الموظف من جدية مظهره، وهو يؤدي عملا تافها. التسجيل في السراكي, الحفظ في الملفات, الصادر الوارد. النمل والصراصير والعنكبوت ورائحة الغبار المتسللة من النوافذ المغلقة. كل يوم لا يحصل تغير).

في تلك اللحظة توقف القطار أفزعني صوت الصافرة، ولكن أين حنان؟! منذ لحظات كانت تقرأ لي.. كيف قرأت لي والرواية في يدي أنا؟!
لا وجود لحنان.. كنت أبحث عن نفسي ووجدتني بالمقهى كنت أركض خلف ظلي،لم أكن أعلم أنني الوليمة التي أبحث عنها في هذا القطار اللعين،تذكرت أنني لم

أكتب عن نفسي شيئًا من قبل.. فاطمة اسمي فاطمـة ولسـت حنان .

الوصية

توقفت أنفاسه فصمت الجميع لبرهة، أحدهم من الجهة اليمنى يخرج ورقة من جيب سترته ليقرأها على مسامع الجميع:

الآن أعلم جيدًا، بل إنني على يقين أن أنفاسي قد توقفت وأن قلبي لم يعد ينبض بالحياة، لهذا أسندت مهمة قراءة وصيتي هذه للأستاذ /ناصر الدين محيي المحامي الخاص بي،أحييكم جميعًا على شجاعتكم بالمثول أمامي والوقوف احترامًا لأموالي الطائلة والتي بدورها ستجعل كل شخص منكم ينسى الجثة الهامدة على الفراش ويفكر فيما سيفعله بنصيبه.

أحمد الشاب الوسيم ابن أخي أعلم أنك لم تراني منذ أكثر من أربع سنوات، ولكن لا أعرف كيف تخليت عن مشاغلك وأتيت لتلقي التحية على ميت،يخيل لي أنك بدأت في حساب إيرادات المصنع.

وكيف سترتب وقتك بين الملهى والمقاهي كما أنني أعلم أنك قمت باختيار الفندق الذي ستقضي بداخل غرفه لياليك الحمراء.. أتذكر الفتاة الزنجية التي توقفت فجأة أمام السيارة وأنا معك ونعتها بالسوداء وانهلت عليها بالسباب فقط لأنها كانت تريد بضع جنيهات لتأكل هي وأخواتها،

كنت أنتظر منك أن تخرج لها شيئًا من جيبك ولكنك لم تفعل.

في هذا اليوم قررت أن أفعل لها شيئًا فأعطيتها نصيبك من أموالي والآن هذه الفتاة أصبحت في غنى عنك وعن أمثالك ولديها مصنع للملابس جمعت فيه كل الجوعى والفقراء ليعملوا به وبدلًا من أن يناموا بالشوارع ليلًا سمحت لهم بالنوم في ساحات المصنع كم أنا سعيد الآن لأنها أنجزت هذا العمل في خلال الأربع سنوات التي قضيتها أنت في السهر وصرف الأموال على الأشياء التافهة لقد أعفيتك من صرف أموالي شكرًا لحضورك هنا لتوديعي..كم أنا ممتن، لهذا الوقت الذي سرقته جثتي منك..

مازن الشاب المدلل ابن أختي الغالية رحمة الله عليها بالتأكيد أنت أكثر التزامًا من أحمد حيث أنك تقضي على أموالك دفعة واحدة في صالات المقامرة، وعلى العاهرات لا أعرف لماذا لا أجد منك، أو منه شيئًا صالحًا يشفع لكم..

الآن تفكر ما الذي فعلته بنصيبك،اطمئن لقد صرفته على مشروعك الذي تخليت عنه من قبل كنت أتمنى أن تقوم أنت بإدارته، ولكن أعتقد أنه بإدارة شخص جدير بهذه الثقة وحصيلة أرباحه ستذهب جميعها لصالح الجمعيات الخيرية..

اعلم مازال لديكم أمل في القصر وما تبقى من المال هذا القصر الآن أصبح ملكًا للسيدة /ميساء عامر.. لم تسمعوا بهذا الاسم من قبل ميساء هي من قامت بتمريضي

لمدة ٣ سنوات دون ملل كانت تقوم برعايتي كما لو أنني والدها، أو ربما أكثر..، وهي لا تعلم بشأن القصر شيئًا حتى الآن..

أنا الآن في غاية الراحة لأنني مطمئنًا على أملاكي، أشكركم على حضور جنازتي، للمرة الأولى أشعر أنني حقًا حي برغم هذا الموت العميق الخالد..

شكرًا لكم لأنكم جعلتموني أشعر أن الوحدة أفضل بكثير من وجودكم الكاذب معي..

هذه ليست نهايتي لقد منحت بدايات من هذه النهاية للكثير..فموتي لم يكن سوى بداية الحياة لهم..

تقاسمنا الرغيف الخطأ

في حالته البائسة تلك سيكون النصف من كل شيء صفقة عظيمة له، نصف مقعد،نصف ضوء،نصف صوت،أو ربما نصف رغيف. فهو أكثر من يتخيل عددا أكبر من الاحتمالات السيئة في ظل اللحظات السعيدة..

كمية من القمح المسحوق وبعض الماء الدافىء،غطاء أبيض يداعب ملمس عجين ناعم ينعكس عليه خيط من خيوط الشمس المتسربة من النافذة،فرن يعلن عن إتمام استعداده لاستقبال أول رغيف من صنع يديها،أعواد ثقاب ورائحة دخان، فقير جدا هذا البيت الذي يخلو من رائحة الخبز...اعتادت هي أن تدثر أناملها الباردة بالعجين، وأن تسد به كل الثقوب السوداء التي تبتلع أسماؤهم وملامح خيبتهم الأولى،بما فيهم ملامحه التي تلازمها أينما ذهبت.

الخبز في عقيدتها صلاة للجائع وملجأ للصائمين، وهذا الرغيف لا يشبه رغيف الجارة ولا يشبه رغيف أمها.. إنه يشبه رغيف "توفيق يوسف عواد" رغيفه العربي اليتيم والذي تم خبزه داخل أفران الحرب العالمية الأولى،وبما أن حياتها معه أشبه بالحرب الباردة قررت أن تتقاسم معه الوجع، أو ربما الرغيف.

وما من شيءٍ يسد جوع الذكرى سوى الماضي،ففي كل ليلة تستقل قطار العودة إلى قائمة المندسين داخل أكمام

معطف الحنين المعلق على جدرانها،تعانق ذكرياتها كما يعانق المنجل سنابل القمح في موسم الحصاد،وتفتش عن حبة القمح التي فقدت جنينها مبكرًا ومع كل زيارة من خيوط الشمس للنافذة تصنع رغيفًا ظنًا منها أنه الحل الأمثل لسد الشقوق التي يتسرب منها صوت أنفاسه الجائعة،وتمتماته الغير مفهومة..

الانطباعات الأولى سرمدية،لذلك كانت تتجنب دائمًا التفوه بالحماقات في لقاءاتها الأولى معه،نحن بحاجة إلى الكذبات الصغيرة لنصنع منها فخ كبير للسعادة..كما فعلت هي تمامًا، نبضة كاذبة جعلت منها سجينة لأكثر من عشرة أعوام.اعتقادها الراسخ بأن هناك من يخطط لإيذاء ماتبقى منها يفسد عليها الهواء الذي تتنفسه فيصبح كل ما حولها مسمومًا..

الحوارات الضيقة التي لاسبيل فيها لخلق الكلمة هي الأكثر وجعًا،لو أن للكلمات رائحة القمح لما كان الجوع كافرًا..

الهرب من حياة شبه مستحيلة حلًا سهلًا عندما يصعب علينا مواجهتها،وكتابة رسالة أخيرة بحبر مالح قد تكون طوقًا للنجاة:

عزيزي لقد تقاسمنا الرغيف الخطأ لن أتحدث عنك كثيرًا، فهذا الرغيف جعلني أرى الحياة..كما رآها جارنا الكفيف الذي كان يتذكر من الحين للآخر لون السماء قبل أن يفقد بصره،علينا أن نحتفل بمرور كل هذه السنوات

المليئة بالآمال الزائفة والأحزان المتكررة ومع ذلك مازلنا على قيد الحياة.

لا شيء يجمعنا سويًا، سوى بعض الأشياء التي لا تتنفس كثرثرة على التلفاز، أو مشاجرة بين الجيران نشاهدها من نافذة واحدة..

يقولون أن الحب وحده لا يكفي. وأنا أقول إن الحب يصنع الخبز والمعجزات.. كنت أحاول جاهدة أن أصبر وأقنع نفسي اليائسة أن هذه الأوقات عابرة،لم يعد بيننا مساحات أخرى لتتربع فيها الهموم ولم يعد بوسعي الوقوف مرة أخرى على هذا المسرح الكبير لأمثل دوري ببراعة كما كنت أفعل سابقًا..

لقد انشق التنور ولم يعد هناك مزيدًا من القمح،وللسنوات العجاف طقوسها..سأبحث عن الظل وحدي بينما أنت ستبقى هنا بجانب الرغيف الأخير لتحدثه عن إثبات وجود الإله.

غيمة عذراء

غيمة عذراء على سفح جسد،سقوط المطر على أنقاضه قد يزهر وجعا.

وحتى لا يتذوق طعم الملح المميت على شفتيها ترك لها القبلة على بعد أميال!!

أتساءل من يجيد قراءة آهاتها الممتدة بطول قامة الحنين؟!

تراه تذوق صوتها.. لامس نبضها..

ثمة جمر ينبت تحت رمادها.. ثمة عطر يتوسد صدرها كأنه عطره و زمانه قبل أن يقترف خَطِيئة النبض على الجسد.

هي.. تشبهه حد التوحد عطره يليق بوجعها..تبغه يليق بمزاجها..شرقيته المربكة تليق بها.

عبثا تمارس التناسي لتصبح هي رئته الثالثة ، مخالب ذكرى مندسة عمدا في أقصى يسارها، تراه يعانق غيمتها بصمت أم يضاجع الحنين عزلته؟!

هناك على صدر الورق مازالت جراحه تنزف من وريد مثقوب بخيبة ملامحها،يكتب لا ليجرح المعنى، بل ليسكب الملح على جرحها..

صمته مغري،للحد الذي يدفعها لسرقة قبلة من بين سكون شفتيه!!

شهية كل الأوقات التي تقضيها معه،ما بين ثرثرة الصمت وخشوع الكلام ترنحت..وأفسحت له المجال ليستلقي على حائِط اللحظة ويشتهيها..

هو يستعيد نبضه، وهي تستعيد أنفاسها..

الطرقات التي تؤدي إليه أصبحت خالية،باهتة الملامح،شرخ الصباحات فيها يزداد اتساعا بعد كل غياب..عبثا يحاول رتق أنفاسه بأنفاسها تاركا لها بقايا رجل ووسادة.

بعدما تراشق معها الأمنيات والقبلات تعمد الهروب بروح مسها العشق، وما كان عليها سوى أن تتلو تعاويذ الفراق والاغتسال بماء غيابه ثم الانتظار!

مذنب هو مع سبق الإغراق والترسب في قاع أقداحها،انتظارها له في حفرة موحشة مع فنجان من الأمل خَطِيئة! ستنعم بالراحة فقط عندما تتوقف الذاكرة عن ممارسة النكاية بمساحات قلبها الفارغة منه..

قرر هو أن يكتب حتى يزهق الرمق الأخير منها..
وقررت هي أن تنتظر اللاشيء منه..

رجل مثله يدعي فقر العاطفة برغم ثراءه الفاحش،فمحاولاته العبثية في الدخول لغيبوبة أنوثتها باءت بالفشل كان يظن أن رجولته ستكتمل عندما تجمع شتاته في أقصى يسارها ويدثر نبضه فيها إلى مثواه الأخير..

وظنت هي أن السيجارة المحشوة بفتات الذكرى ستعبر بها داخل زفراته المزدحمة بصدر الورق لتنفث فيها الوجع ثم ينتصر الرماد!

احتضار لحظات احتياجها له ببطيء اغتال أنفاسها زهق بداخلها ألف حلم، ألف ذكرى ورجل واحد..

" ثمة مواسم خالية من كل شيء إلا الوجع "

تساءلت في وجع هل ثمة من يستحق قلب ثان يدفعه للانصهار في لهيب الصدمة الأخيرة؟!!

كانت تبحث عنه بينها وبينه لربما ظل ترتديه،تحسست ملامحه على المرايا عندما سقطت جميع الأقنعة ونفذ رصيده من الوفاء،هو الموت والحياة في آن واحد.

كان عليها أن تمسح نافذتها بعدما مارس عليها المطر صلواته العنيفة..شاحبة هي الطرقات،مؤلمة انكسارات الأضواء، كان يترك لها علامات الاستفهام كمواسم الجراد تأكل أخضر الأمل ويابس اليأس فلا تترك لها إلا فتات الضوء في عتمة الشوق..

فمنذ سالف الفقد، وهي ترتق نبضها بنبضه وترمم رفات الحلم المنحور على صدره،كم يلزمها من الوجع لتقتنع أن هذا الرجل أصبح عاطلا عن النبض!!

كان يمر بمحاذاة الألم دون أن يصطدم به وكأنه يخبرها بطريقة ما " أنا لم أعد أشعر".

خلع معطف حزنه الثقيل ثم وضعه على أكتافها ورحل فخطفت أنامله بين كفيها وبصوت متقطع قالت: أنا التي دفعت بقلبها لتحجب عن صدرك حرقة الشمس فهل حان موعد احتراقي؟!

تخاف أن يبتعد.. يخاف الاقتراب.. تخشى فقده.. يخشى، فقد نفسه..تجرعت معه ألف خيبة وتسأله المزيد!..

تخنقه الساعة وتقتلها العقارب فكلاهما ضحية الوقت، روحها المبتلة بالصبر أوشكت على الجفاف فما أبشع المسافة عندما تكون أقرب من النبض،

تبقى الجراحات عالقة بالذاكرة وعبثا تريد مسحها ببلسم شفتيه العابر أتت قبلته كفرحة مبتورة، أشعلت برودته نيرانها.توقفت الكلمات على أعتاب صمتها..

ثمة صفعة أخبرتها أن تكتفي،أن تستوعب منعطف الفراق،أن تتحول إلى حكاية أخرى،أن تأخذ مكانها على الرف الأخير من ذاكرته وتنسى.

جميع أوراقه تساقطت ولا طاقة لها لتحمل خريفه، فهي أيضا بحاجة للربيع، أدركت بعد عام من الخيبة أن فاقد النبض لا يعطيه وعطره هو الكائن الحي الوحيد الذي كان ينبض فيه.

عتمة

على الجهة الأخرى كانت تنتظر رجفة اللقاء بينما هو كان يفعل كل ما بوسعه ليفاجئها بالفراق.

كتبت له رسالة في ذات التوقيت الذي أمسك فيه هو أيضًا بالقلم..

رسالتها..

حبيبي بعدما ارتعشت كل مسافاتي أمامك

واحتضنتك بداخلي كما تحتضن الأرض نبتتها في أعماقها، بل وتبتلعها أيضًا تلعثمت أناملي، وهي تجدل خيوط الحلم من البداية ازدحمت نبضاتي خلف صدري وأنا أتذكر صعودي وهبوطي على أرضك..

استعدت أنفاسي وتعلقت بطرف الورق فتبعثرت حروفي..كيف لأيام الشتاء أن تصبح صيفا حارًا هكذا..كيف مر الوقت بكل هذه السرعة والمزيد من (كيف ولماذا)..تهاجمني الآن في حضرة غيابك واقتراب موعد اللقاء.

حلمت بك فوق سرير من الغيم,وأنا ألتحف بشعري الغجري

أحرض أنوثتي عليك . لأول مرة أحكي حكاية أخرى.

فاصل قصير ربما قبلة، أو عناق...ارتديت الفراغ،مارست التخفي,وأنت كنت منهمك في بناء جسر تعبر به من النهد إلى النهد..لم يستغرق بناءه رعشة

شفاه...أنفاسك ملونة بقنينة شوق أتعطر بها كل ليلة...رقصة وتمتلئ الفراغات...لتنتهي في عمق اللذة وحدك من سيشهد انشطاري الأخير.

أحبك..

رسالته..

ثمة لحظة تمر بين ردهات زفرة حارقة وكأنما موت سيحدث قبل موعده..أمارس الغرق والاحتراق على سبيل الفراق,أنتعل الريح وأركض إلى حيث لا أريد،أرى ثقب الشمس من بعيد..ثمة من يقتلع الأشجار ولا ينصت لبكائها..

أقداح الليل باتت ممتلئة عن آخرها,سأرتب ليلتي حسب أبجدية الوجع,سأمارس نفس الطقوس,وأتابع الغرق والاحتراق, أراقب مسار الرياح, أصلح النافذة المكسورة,مقبض الباب, الخزانة,أدراج الحنين,أوراق التيه المكدسة على فراشي.

أتابع انتفاضتي وألعن عيون المارة و العابرين. حانت ساعة الفراق لا تنتظري..لا تبكي.. العني هذا الحظ الذي جمعنا ثم فرقنا

مزقي الصور..أبصقي الذكرى..

أقطعي الخيط المعلق على أطرافه خيط أنفاسي..

لم يعد لدي متسع لخيبات أخرى.. لست أنا ذلك الرجل الذي تحلمين به كل ليلة..

لم يعد لدي قلب.. لـم يعـد لـدي حلم..ثمـة أشـياء تجتمـع لتفترق.

يوم من أيامي

افتح النافذة المجاورة للفراش، فالهواء الآتي منها يلفح رأسي وكأنه يعريني من الذاكرة وخدشات الماضي،بنصف عين أنظر على ساعة الحائط، الثامنة صباحًا..كم أكره المواعيد الصباحية،حيث لا حصاد تحت الشمس..

عادل الماكث في الجانب الأيسر لم أحدثه بالأمس، وغالبًا هو الآن بالمقهى، أو ربما سرق بعض الوقت للهرب من ذاته، بلعب الشطرنج..

على الطاولة الصغيرة بمنتصف الغرفة قائمة طويلة من الأعمال والطلبات التي لا تنتهي..

إحضار الخضار والفاكهة من السوق

مواد للتنظيف

خمس بطاريات

إحضار الطبق الفخاري من ماجدة جارتنا

إلقاء القمامة

إفراغ الخزانة

لا أعلم متى سينتهي صخب العالم..هاتف بطاريته فارغة شيء يعلن عن بداية يوم سيء..

سلسلة مفاتيح مركب وهلب وبعض الأسماك أجمل هدية تلقيتها من عادل لا تفارقني أبدًا، برغم أنها لا تحمل سوى مفتاح واحد لا باب له وجدته على الرصيف المقابل للبيت.

لست ممن يعانون من داء المرايا..بنطال واسع، بلوزة خفيفة وحقيبة يد كبيرة أحمل فيها همومي و أشياء أخرى..

الخروج من البيت يشبه الخروج من الجنة تمامًا كما فعل آدم يخرج بحثًا عن التفاح اقصد العمل،أغلق الباب بحذر حتى لا أتعثر ب ماجدة، ولكن لا جدوى التفافة خفيفة لأرى ماجدة مقابل وجهي تمامًا..

-فاطمة إلى أين؟ أول مرة أراك في الصباح الباكر هكذا عله خيرًا..

- لا تقلقي يا ماجدة سأبحث عن عمل كفاني مكوثا بالبيت كما كائنات البيات الشتوي.

-الله يوفقك ويوفق أدهم (ولدها البكر والتي تصب الدعوات على مسمعي مرافقة لأسمه ظنًا منها أنني سأصبح يوما العروس،حمقاء).

- ماجدة لا تنسي الطبق الفخار ارسلي لأمي تنتظره تخشى عليه كما لو كان آخر العنقود إنه إرث جدتي..

وهنا أنطلق من أمامها خشية من أن تنهال علي أسألتها..

وداع سريع للطابق الثالث حيث موطني الصغير وهنا على أراضي الطابق الثاني تسكن رجاء السيدة ذات القوام الممشوق..سيدة الأنوثة الجميع يتجنب الحديث معها بسبب سمعتها، أما أنا فلست مثلهم أعشق الحديث معها على، أي حال.. صوت باب يفتح بكسل..

-صباح الخير يا رجاء غريبة من الذي أيقظ الإثارة في الصباح الباكر هكذا..
- الزبال الله يخرب بيته (وضحكة كفيلة بإيقاظ حارس البناية المجاورة).
- أودعها بضحكة وتلويحة سريعة..
لا أحب الطابق الأول حيث عبدالمنعم الثرثار الذي لا تنتهي مواضيعه أبدًا لذلك أخذتها ركضا.. حتى بوابة البناية يا الله اعفني من الخروج إلى هذا العالم النتن، صادق صاحب البقالة سحبت كرسيه الخشب وجلست..
-صباح الخير يا صادق أين هي؟
- الشكولاتة بالأمس لأجلك فقط اشتريت القليل هذه النوعية لا يشتريها الكثير بسبب ثمنها
- أتعلم يا صادق أنا على استعداد أن أدفع في الشكولاتة كما يدفع عبدالمنعم في الحشيش.

ضحكة عالية من صادق وتلويحة مني مع إشارة (اكتبها على الحساب) السير سريعًا من الأشياء اللاإرادية التي أقوم بها خاصة عندما أكون وحدي.. الوصول لموقف السيارات والانتظار من الأشياء التي منحتها كثيرًا من وقتي،موعدي بالحادية عشر لذلك خرجت من البيت في الثامنة والربع!
تقطع شرودي صديقتي مروة والتي تعمل بإحدى المستشفيات..

- فاطمة.. فاطمة.. صباحك ياسمين اتصلت بك هاتفك مغلق

- البطارية... عليها اللعنة

- لكن ما كل هذا الجمال وجهك يملأه الحب،استري قلبك نحن في مدينة (الحرام والعيب)

- ذكرتيني بقول رجاء المأثور (استري الحب كما تستر النساء نهودها) خشية من تلصص الأنظار

- هههه رجاء (مصيبة)

- أراك في المساء..

ومن هنا تبدأ رحلة البحث.. أستقل السيارة وأخرج الورقة المليئة بالعناوين.. من أين أبدأ..

مطلوب سكرتيرة حسنة المظهر (المظهر) لن يقبلوني احذف من القائمة هذا العنوان.

مطلوب موزعة مبيعات ذات خبرة لا تقل عن خمس سنوات (احذف هذه أيضًا من القائمة الحمقى من أين آتي بخبرة لا تقل عن خمس سنوات)

مطلوب زوجة مسيار، أو متعة (سأرسل لهم رجاء هههه ما هذا الهراء)

وأخيرًا مزقت الورقة فأنا أعلم عنوان العمل الذي أتقنه جيدًا، إشارة للسائق ليتوقف وأنزل من السيارة بكامل أناقتي الفكرية..

تاكسي أسرع كثيرًا من السيارات الأخرى..أرتمي بداخله ثم أخبر السائق بالعنوان،نظرة سريعة في المرآة

العبث بالحقيبة لإخراج أحمر الشفاة أشبه بالحرب أين أنت يا صغيري ها هو ذا تمامًا كما يعشقه عادل لونه هادى..

وأخيرًا وصلت للعنوان ومشاجرة صغيرة مع السائق على الأجرة لا أحب أن يستغفلني أحد.. صوت السائق عال وبطريقته الهمجية

(يا بنت المفترية البنزين غالي حرام على أمك،عايزة تديني عشرة جنيه في مشوار حقه ٢٥ بتركبي تاكسي ليه حسبي الله على الصبح)

هنا يأتي فارسي من خلفي ويشد يدي ثم يعطي للسائق حقه

- هكذا دائمًا أخشى يومًا أن أقوم بزيارتك داخل السجن
- اشتقت لك
-هاتفك مغلق
- البطارية
-ملعون البطارية، من المفترض لديك موعد بالحادية عشر لتقديم طلب للعمل
-قمت بإلغائه أنا لا أجيد فعل شيء سوى أن أحبك
-سنذبح يومًا.. تعالي

سحب كرسي بالقرب من الطاولة التي يجلس عليها وأمامه رقعة شطرنج.. ثم ابتسامة عريضة يتسرب منها رائحة الانتصار على خصمه، غمزة وقبلة في الهواء تشربي إيه.

الشارع الخلفي

كان يمشي بعد منتصف الليل وحده هكذا يحب أن يكون وحيدًا دائمًا، الشارع الخلفي للبيت هادئًا ويمنحه شعورًا بالراحة، يمشي ببطىء ليستمع إلى صدى خطواته,ويقوم بعد المصابيح المعلقة على مفترق الشارع بصوت عال، واحد اثنان ثلاثة أربعة ثم يطيل النظر إلى النوافذ المضيئة ويسأل نفسه مرارًا ترى ما الحكايات التي تخفيها الستائر..

هناك في الزاوية نافذة قد مر على اندثار ضوئها أكثر من عامين، وعلى الجهة اليمنى نافذة رجل يعرفه تمامًا .. أبواب البنايات حفظ زخرفتها عن ظهر قلب،البناية الخلفية تحمل بوابتها لو حات قديمة وصدئة،أرقام هواتف لأشخاص مجهولين..بوابة أخرى تعاني من فقدان لونها الأصلي ..فمنذ سنوات كثيرة كان لونها أخضر ومع قسوة الأيام تحولت لرمادي..

كل خطوة له فيها ألف ذكرى وغيمة ماطرة..

مبلل من كل الجهات عدا اتجاهها الخامس الذي يتكأ عليه باكيا..يمنح لنفسه مساحة ليرى العالم بالعين التي لا يرى بها نفسه..بين الظل والجدران حكايات ونافذة برائحة خذلانه وحده يعلم لما كانت خائنة وغريبة، لهذا الحد الذي جعله يمزق أوراقها وستائرها ..كل ما يدور في رأسه هو البحث عن مخرج ..مخرج يليق بأوجاعه وأحلامها ،ثمة وقت يفقد فيه شهيته للحلم والانتظار فيقتل كل ماحوله،

يمحو كلماته، يقف كثيرا عند مفترق السطر الأخير ويركل نقطة النهاية فتصدم بنافذة أخرى ..

وهنا يفقد حواسه الخمس مستعينًا بإحساس القمر..هل سيمنحني الضوء عطرها؟

يجلس على الرصيف ويلتقط بعض الحجارة الصغيرة يحدق في صندوق القمامة على الرصيف المقابل يقذف عليه الحجارة واحدة تلو الأخرى مستمتعًا بما يفعله كما لو أنه يقذف بذكرياته في صندوق القمامة كل حجر يزيح عن قلبه ذكرى مؤلمة للحظات..

يبتسم ثم ينهض ليعود لبيته الصغير دون أن يشعر به أحد ..للشوارع الخلفية خبايا وخطوات لا أثر لها ..حجارة وأوراق ممزقة،ثمة ذكرى لا يليق بها سوى صندوق النفايات.

ذاكرة شجرة

ثمة صباحات أعبر فيها إلى الجهة الأخرى من النافذة وأدخل عميقا في غيابهم.. لن تنقذني أبجديتي من الغرق في ماء نسيانهم،

لربما رسم خريطة لمدينتهم القديمة يفعل!

سرداب عميق،ممرات ضيقة وأخيرا شوارع عريقة كهذه التي كان يقطن فيها أثرياء كربلاء. أذكر أنهم من فرط الغياب، أثروا بداخلي فوضى الميتات المبكرة للذكرى.. أعدهم بأن الفنجان سيظل محتفظا بالبقايا وشجرة السرو ستلتحف بأوراقها.. أما أنا سأكتب..أكتب فحسب..

لم أعد أهتم بعقارب الساعة إلى، أي توقيت تشير،فكل التوقيتات أصبحت متشابهة حد الاختناق،عدا الساعة الخامسة التي أذهب فيها إلى حيث شجرة السرو،أجلس تحت ظلها على العشب الرطب استمع إلى تنهيدة الأرض المتسربة من جذعها.. تساقط بقايا الأعشاش على رأسي يلمس أفكاري النائمة فيوقظها..

عودة للعام الماضي..

حيث جدتي كانت تجلس هنا وتحدث الشجرة عن الغصن العاصي الذي تمرد عليها وتركها ليشق طريقه وحده وما كان له سوى الجفاف كيف يتمرد على من يمنحه لقب الغصن الأخضر والذي استبدله ب الغصن اليابس بعد فراقه لها..

لم أفهم تمامًا ما قصد جدتي هل حقا كان غصنا حقيقيا، لم تخبرني ولم تخبر أحد فقط كانت تودع كل أسرارها هنا في قلب الشجرة،هذا الطين يحمل الكثير من بقايا لمسات جدتي ورائحة فأس جدي،أرجوحة أخي ودموع أمي، حتى ملابسنا المبللة أخذت نصيبها من هذه الشجرة..

في هذا العام تبدل كل شيء.. هذه صفقة (كلمة سمعتها من أبي) بينما أمي كانت تبكي وجدتي تنظر لصورة جدي بوجع، وهي صامتة حاولت جاهدة أن أعرف ما الذي يدور في رأس كل فرد منهم، ولكن دون جدوى أتيت إلى هنا حيث الشجرة التي أقمت بجانبها صلواتي وأشعلت على أغصانها شمعة أحرقت نصف أوراقها في لحظات..هنا خرج الجميع ركضا من البيت..

أيتها المجنونة هل أنتِ، بلا عقل كيف تفعلين ذلك انزلي من فوق الغصن،الأوراق تحترق..الجميع يصرخ بصوت عال بينما أنا لا أشعر بشيء سوى الدفيء، صورة الأمس أمامي..أخي يلعب بالأرجوحة، جدتي تطعم العصافير، أمي تقوم بوضع الملابس أمام خيوط الشمس لتجف قبل المغيب..لا أرى أبي، ولكن حتى جدي الراحل رأيته ممسكا بالفأس ويحاول قطع الشجرة،ينظر لي، وهو يصرخ انزلي لقد زرعت لك أشجار الزيتون، وأيضًا قمت بزراعة شجرتي صنوبر كما طلبتي وكثيرًا من الزهور، بل وأحضرت لك زهرة اللوز..انزلي أرجوك.. وهنا قررت أن افتح عيني، ولكن لم أر جدي كان أبي يحاول

إطفـاء الأغصــان بالمــاء والجميــع يفعـل مثلــه،لم أشــعر بالحريق الذي تسببت فيه، أو ربما لم أكن أنـا الفاعلـة،كنت أنتظـر أن تخبرنــي الشـجرة بأسـرارها، ولكنهـا لـم تفعـل.. حروق طفيفة، وارتعاشة في أحضان أمـي مـن خلفـي أبـي يضع على أكتافي شال جدتي الأخضر. وبصوت قلـق لمـا: فعلتي كل هذا؟

-اسأل الشجرة!!

كان جاري هو الذي يمسك بيدي و زوجته تقوم بوضـع الثلج على وجهي.. كنت أعلم أن الجميع مـاتوا وتركـوا لـي شجرة وبيت فارغ منهم ومليء بذكراهم..

مواطنون برتبة متسولين

أعشاش صغيرة متناثرة ليست فو ق أغصان الشجر،بل على أرصفة هذه المدينة البائسة.الجوع هنا من الأشياء العادية التي يعاني منها المتسولون إلا المحترفين منهم الذين يجيدون فرز الطعام من بين القمامة،حتى القطط والكلاب يتشاجرون على ما تبقى من عظام الدجاج والأوز القادم من القصر (قصر مجدولين والذي يحمل ذات الاسم لابنة رئيس الحي المدللة) نعم خلف القصر الخاص برئيس الحي يقطن بعض الرعاع (على تعبيره) الذين يتخذون من الأعشاش بيوتا هشة لا تحميهم من غضب السماء ولا من لفحات الشمس..

ذات صباح بينما يقوم راعي الحديقة بالقصر بري الأزهار والعشب كانت تبحث أليف عن بعض الماء النظيف لتشربه برغم أن الفرق بين القصر وحي البؤساء هذا سور، إلا أن الفرق بينهم كما الفرق بين الأرض والسماء.

رئيس الحي رجل لا يجيد فعل شيء سوى شم رائحة الأموال وعطور زوجات الوزراء،العقبة التي تنغص عليه أوقاته هي هذه العشش والتي كثيرًا ماينعت أصحابها

باللصوص برغم انهم لا يسرقون سوى حقهم بالحياة ولا يريدون شيئًا سوى الماء والخبز..

صوت أليف، وهي تصرخ وتلعن السماء عندما مرت فوقهم سحابة ماطرة استفز أمها مما جعلها تضيف التوابل على سبابها..

-أليف كيف لك أن تلعني السماء؟ أوليست هي من نصلي من أجل أن تدمع غيماتها عندما تخوننا الشمس.؟

-أمي أسألك برحمة الرب أن تكفي عن الشعارات، العشة كادت أن تغرق نصف سقفها سقط على الأرض، انظري حتى الرغيف اليتيم الذي نملكه أصبح مبللا ولم يعد يصلح لنا فلأوزتك المسروقة حظ أفضل من حظي على الأقل سيسكت الرغيف جوعها.. هل يرانا الرب حقًا يا أمي.. قبل أن تطلقي علي سبابك سأقوم بتصليح السقف..

- ابنة عاصية

- لست أنا يا أمي، بل الأيام كو ني منصفة

ثوب أليف ينشق إلى نصفين بينما تقوم برفع الصفائح لتعيد ترتيبها فوق السقف الهاوي وهنا يأتي مصطفى صاحب العشة الأكثر هشاشة،ثوبها المشقوق يكشف عن فخذيها يقترب منها ويلمسها،

-أليف من أين أتيت بهذا الجمال،أحضرت لك طعامًا شهيا،

-يوما ما سأقوم بقطع يديك

-اقطعيها واحتفظي بها للذكرى سأترك المكان اليوم

-إلى أين؟؟

- سأعبر السور،عم أمين وجد لي عملا بالقصر سأقوم بمساعدته في أعمال الحديقة

- حقًا، يا لبركة السماء سترى مجدولين حتمًا، لا تنسى أريدك أن تصف لي هيئتها، ملامحها،ملابسها طريقة حديثها كل شيء عنها أرجوك،فهذا العالم ليس منصفًا أبدًا. كيف يكون بيننا وبين الجنة سورا ولا نستطيع عبوره إلا بالواسطة تبًا للحياة..

- هذه المجدولين لصة صغيرة وريثة أبيها في الخيبة صدقيني عندما يصبح رئيس حينا المعظم رجلًا عاديا سينهدم هذا السور وحينها لن يفرق أحد بين الجنة والنار

-، ولكن هذا لا يمنع أنها جميلة ويتلهف عليها الرجال

-تقصدين كل أب القصر طمعًا في نفوذ أبيها هذا الرجل ليس رئيسًا للحي فقط،فهذا المنصب ماهو إلا ستار لأعماله النتنة، ألم تفكري للحظة أن هذا المنصب أصغر بكثير من قصرًا كهذا كما أن هذا الحي يخبئ خلف جدرانه سرًا، اسمعي بين أعشاشنا تلك جواسيس دسهم هنا لينقلوا له كل صغيرة وكبيرة خشية من أن نتآمر عليه فبرغم صغر حجمنا إلا أنه يخاف منا،بل أنه يرتعب ولا يستطيع النوم أيضًا.

- إذن عليك أن تصمت فحتى الجدران لا نمتلكها ليكون لها أذنان

- أضحكتيني ويالها من نكتة، كاذب هو من يدعي أن أربعة جدران هم الأمان،أنا لم أر أربعة جدران وسقف إلا في السجن بالعام الماضي عندما قمت بسرقة عشرة أرغفة من المخبز وقام الخبازون بضربي كما لو كنت لصًا!!

- يقول أبي أننا أول أهل الجنة،أبي أحمق أتعلم لماذا؟ لأنه لم ير زوجة رئيس الحي المتبرجة، وهي تستقل إحدى سيارتها الفارهة، يقولون أنها ورثت عن أبيها أموال طائلة ولم تكن يومًا بحاجة لأموال زوجها هي ليست جميلة،بالحقيقة المساحيق فقط تستر عيوب ملامحها..

يقول هذا لأنه يرى أمي بذات الثوب منذ أكثر من ثلاث أعوام..

- أليف أخشى أن يسمعك ذات يوم ويقوم بدفنك وأنت حية

-انس أنا فقط أحب الثرثرة، ماذا بشأن العشة خاصتك لمن ستتركها

- للورثة الشرعيين،أليف ماذا أصابك؟؟وهل لدي أحد هنا؟؟سأتركها للهواء،حتما سأعود يوما بعد طردي من القصر فأنا لا أمكث في عمل أكثر من سبعة أيام

- سمعت أنهم سيقومون بهدم المشفى المجاور للمحطة، أحدهم اشترى الأرض بثمن بخس على الرغم من أنها تساوي الكثير، الكثير من المال، أخبرني الحارس أن رئيس الحي له يد في ذلك.. هل حقًا يقوم بتسهيل عملية بيع

الأراضـــي التـــي تملكهـــا الدولـــة لرجـــال الأعمـــال والمستثمرين؟؟!

- أليف لا تسألي شأننا كشأن هذا الحمار الذي يقوم بجر حمولـة الخضـار الخاصـة بعـم وفيـق، ولا تتحـدثي بشـأن المشـفى مـع أحـد،أخبريني متـى سـتقومين بالانتهـاء مـن الأوراق الخاصة بالهوية..

- دعني أضحك بصوت عال،عن أي هوية تسـألني هـل تقصد اسمي وعنواني و دياناتي لقد فعل أبي الصواب بأمر الهوية حيث إن أمي ولدتني هنا بالعشة وأن جميـع الأوراق الخاصة بزواج أبي وأمي احترقت عندما شبت النيران فـي بيت أبيها، وعند ولادتي رفض الموظـف منح أبـي شـهادة ميلاد لأنه لا يوجد إثبات أننـي ابنتـه والآن أنـا سـعيدة جـدًا لأنني لا أمتلك ما يثبت أن هذا الوطن حقـا وطنـي،ثم أننـي أتساءل في كل لحظـة مـا الـذي سـيتغير فـي الـدنيا عنـدما أمتلك هوية..لن يتغير شكلي ولن تتغير العشـة سـيظل أبـي أبي وأمي هي أمي حتى الأوزة لن يتغير صـوتها، لا أريـد هوية أنا الهوية..هوية الآله على الأرض

- من أين تأتي بكل هذا الكلام

- من الروايات فأنا وبلا فخـر تعلمـت القـراءة والكتابـة على يد سيدة كانت تعمل لديها أمـي، ممـا يجعلنـي أسـتطيع القراءة،أعلم سوف تسـأل مـن أيـن أتيـت بالكتـب ونحـن لا نمتلك حق الرغيف، سرقتها من المكتبة، فإن لـم يكـن لـدي الحق بشرائها فلدي كامل الحق بسرقتها..

-كل يوم أكتشف أننا في عالم لا يستحق نحيبنا،لاشيء يجبرنا على الخوف لا من اليوم ولا من الغد فنحن لانمتلك شيئًا نخشى بفقدانه وهكذا أفضل،اقرئي حتى، ولو بالسرقة.

- المهم لا تنسى ما أوصيتك بـه مجدولين أريد معرفة كل شيء عنها أرجوك لا تنسى

- لن أنسي برغم إنني أعرف المعادلة بيننا وبينهم نحن فقط نضع الصفر خلف الواحد

- ماذا تقصد؟؟

-لاشيء انس..

وهنا يتوقف الحديث بينهم، لا شيء يشبع مخيلة أليف،فمصطفى هو مصباح لعتمة ليلها،كانت حزينة لأنه سيعبر السور وفي ذات الوقت سعيدة لأجله متسائلة ترى هل جنتهم شقاء كما يخبرني أبي دائمًا أم أنه يقول لي هذا الكلام كي لا أموت بحسرتي.

ثمة وقت تفقد فيه شهيتك لتصديق أحاديثهم فقط لأنك مقتنع تمامًا بما يدور في رأسك، وهذا مايحدث مع أليف لا تقتنع بصوت آخر غير صوتها.. في صباح اليوم التالي كان وداعًا قصيرًا لمصطفى، لن يبتعد كثيرًا عنها،القصر ومجدولين حلم أليف لاتريد أن تعيش فيه هي فقط تشتهي رؤيته من الداخل حلمها أن تلقي نظرة على حياة مجدولين وهنا يقطع شرودها صوت مصطفى:

- أليف لن أذهب بعيدًا سأكون هنا دائمًا اتفقنا وأتمنى أن تفكري جيدًا بشأن الهوية سنقوم بعملها وجمع الأوراق من جديد حتى لو استغرق الأمر سنة سنفعلها

- لا عليك المهم ألا تنسى أخبرني بكل شيء يحدث بالداخل أنا متشوقة لسماع حكاياتهم

- حسنًا لن أنس

يوم آخر مع أمها والتي لا تحمل هما سوى إطعام الأوزة،عم وفيق بائع الخضار تأخذ منه بقايا الخضروات والفواكه الفاسدة لتأخذ منها ما يصلح وتطعمه لأوزتها،بينما أبوها يقضي اليوم كله في جمع القوارير البلاستيكية من القمامة وبيعها بالكيلو، لم ينجبوا سوى أليف ثمة ما حدث في رحم أمها منعها من الحمل مرة أخرى،جمع الصفائح هي مهمة أليف بما في ذلك تنظيف قطعتين الملابس التي يملكونها.. انتظار مصطفى في آخر النهار من ضمن المهام التي تقوم بها..، ولكن الحظ لم يكن حليفا لها في هذا اليوم لم يأت مصطفى كما وعدها، انتظرت يوم آخر، ولكن لاجدوى ثمة ما يأخره ويمنعه من المجيء هكذا كانت تختلق له ألف عذر، لهذا الغياب،مضى أسبوعان على غيابه ومازالت تنتظره.

وبعد ظهيرة اليوم الخامس عشر أتى مصطفى، ولكن بثياب أخرى غير التي اعتادت على رؤيتها عليه،بنطال نظيف وقميص لا يحتضن أي بقعة بابتسامة قصيرة رحبت به بينما هو وقبل أن تتحدث بشيء قال:

- أليف أقسم أنه لم يكن ذنبي كان العمل شاق أكثر مما توقعت فالحديقة كبيرة أكبر مما تخيلت كنت أعمل طيلة النهار كما البهائم التي تدور حول نفسها بالساقية،ولكن أعلم أنك مستاءة مني.

- ما عليك المهم أنك تبدو بخير كما أن جيبك عامر بالسجائر،هل رأيت مجدولين؟

-لا لم أرها بعد حتى القصر لم أره من الداخل فغير مسموح للعاملين في الحديقة بالدخول إلى هناك، ولكن حدث شيئًا بينما كنت أقوم بتنظيف العشب من الأوراق الجافة،شاب أنيق جدًا قام رجال رئيس الحي بضربه ولوي ذراعه اليمنى كنت قريب منهم لدرجة أنني سمعت صوت عظامه، وهي تنكسر في أيديهم فتركت الأوراق والعشب وركضت نحو عم أمين وكل ما أخبرني به ألا أتحدث بالأمر مع أحد،أتعلمين كل ماخطر ببالي كيف سيتعاملون مع شخص مثلي حتمًا سيقطعون جسدي إربا

-أربعة عشر يومًا، وهذا فقط ما حصلت عليه كنت متشوقة لسماع الكثير من الحكايا خيبت ظني.

- أليف من الواضح أن خلف هذا السور ألف سور آخر يجب علينا أن نعبره لكي نعرف ما الذي يدور بالداخل فنحن أبعد مما تتخيلين عن هذا العالم، ومن الواضح أيضًا أنه عالم قذر، وأعشاشنا تلك أنظف من حكاياتهم الرثة بالداخل يحترمون اللص الكبير يقدمون له الضحايا قرابين وعهودا للوفاء أعمالهم السوداء يغطونها بستائر من

الكذبات البيضاء التي يضحكون بها على أمثالنا ليخرسوا أصواتهم، أتعلمين جئت اليوم هنا ولن أذهب إلى هناك مرة أخرى لقد تشققت يدي من أعشابهم الجافة حتى عم أمين رأيت فيه متسلط صغير يحكم علي بالعمل الشاق كل يوم، بلا رحمة.. هذه الثياب الجديدة دفعت ثمنها من كرامتي فشتائم عم أمين لي أمام رجال رئيس الحي ملتصقة بأذني وكأنه يظهر لهم قوته من خلال إلقاء الشتائم على العاملين بالحديقة،حصيلة تعبي بنطال وقميص وعلبتان من السجائر، وقليل من الطعام الذي أحضرته لأوزة أمك.

وهنا تضحك أليف ضحكة ساخرة، وهي تقول:

لقد ذبحت أمي الأوزة..

رشفات من فنجان أنثى

الرشفة الأولى

إلى صاحب المزاج المربك الذي يرتشف قهوته بعد منتصف الليل بعشر دقائق
كن منصفًا بالحضور ولا تسرف بالغياب...

من الفنجان السابع عشر..

سيئة هي تلك الأشياء التي ترتدي اللون الداكن،فبإمكانها العبث بالمخيلة كيفما تشاء و وقتما تريد..
الحزن سيئ السمعة.. نعم أقصد ما أعنيه تمامًا، ولكنه أنيق!
ثمة شيء أجهله الأسود لون مدهش للغاية لما وضعته الحياة بالقائمة السوداء؟!
لنشرب في نخب السمراء بقايا النبيذ المعتق العالق بعمق الفنجان،الرشفة المقدسة هي دائمًا الأخيرة.. هكذا تتسرب الذكريات من مسامات القلب للنافذة!
المنفى الأخير أربع جدران وخمس نوافذ إحداهن اهترأت ستائرها والأخريات يعانين من الغبار والأكاذيب الملونة...ثمة حقل سنابل لا يعترف بالحصاد و رجل يتخذ

من الأوجاع سرًا، ومن البكاء الصامت رداء لجراحاته المتخثرة، يشعل الألم ببعض الذكريات المالحة..ويعانق ظل شجرة فقدت ثمارها بالخريف الماضي..

عودة للقهوة.....فبعد رحيل البقايا تنمو الذكرى من الفتات.. الأحلام الرمادية لا تشتعل على وسائد الرجال..ثمة لون آخر وأنفاس ضلّت الطريق، إرباك المسافات لا يحترفه إلا المجانين! العقلاء فقط هم الذين لايستطيعون ملامسة النجوم..

البن الغامق أحد الأسلحة الفتاكة..لص أسمر محتال،يعرف تمامًا التوقيت المناسب للافتراس!.. الإفراج عن سجناء الذكرى مهنته الوحيدة،يحترف العزف على وتر إحياء الموتى.. موتى المكان والزمان..
ثمة هلوسة تأتي على غير موعد..وثمة موقد يحتضن الحطب، فنجاني بحاجة لخريفين وشتاء وفصلين ربيع..
هناك أيضًا بعض البقايا لم يأت موعد حصادها بعد

الرشفة الثانية..

التوقيت..

لا شيء أكثر وجعًا من الوقت عندما يسير عكس اتجاهات الروح فيخلو بنفسه كبقعة ضوء سرعان ماتختفي فجأة..

ثمة قهوة تغلب عقارب الساعة تكف فيها عن الكلام،تصمت وتواصل الشرود دقائق قليلة كافية ليمتزج الواقع بالخيال..

الخطوط المتعرجة العالقة بجدار الفنجان.. مدينة شقت طريقها عبر الحروب القادمة والدخان..أرضها ليست سالمة تمامًا ثمة قنابل مجدلة على أكتافها،سماءها نشيد لعصفور، فقد عشه ذات عاصفة، ذنبه الوحيد أن منقاره لا يتسع لاحتضان أكثر من حبة قمح واحدة!

الأوراق المتساقطة حول العالم لم تكن سوى(صرخة خريف) شهوات لفناجين فارغة خانتها البقايا، قوس قزح زائف يطارد نافذة مغلقة، أو ربما تكون صرخات غضب تطلقها الأشجار في وجه الفؤوس..

ثمة ظل مكسور لذراع فنجان على طاولة لا تتسع إلا لمقعد واحد وخريفين،والكثير من الثرثرة ربما هذا هو التوقيت الأنسب لإشعال سيجارة محشوة بالحنين..

قهوة وتبغ الثنائي الذي يحرك الأشياء الساكنة وربما تلك المنسية فو ق آخر رفوف الذكرى..

رجل الصباحات المبكرة يشعل أوجاعه قبل تبغه يسير بمحاذاة الرائحة ليتخلص من عقدة الذنب،نافذته ليست موصدة تمامًا ثمة فراغ تعبر منه غيمات الدخان المصطدمة بخيوط أشعة الشمس المتسربة من الخارج..

ثمة تبغ رخيص يعبث برئة الذاكرة ويصيبها بالاختناق لذلك هو مهووس بشراء علب السجائر الفخمة كي لا يقع بين أنقاض الماضي ويصبح فريسة شهية لأنياب الحنين.. فكل ما يريده من الحياة (جنازة هادئة)!!

من الطابق السابع للخيبة باب مفتوح ونصف نافذة،ضجيج قصائد لشاعر يتقن مداعبة الحبر والظل..أخبرني أنه ليس بشاعر، ولكنه يعشق القهوة ويقسم بالقلم،أوراقه موطئ قدم للخيال يعرف تمامًا أين يزرع الحرف، ومتى يحصد ثماره..

أبجديته تصلح لمغازلة نساء القرية المبتلة سيقانهن بماء النهر والملطخة فساتينهن بالوحل،مدينته مليئة بالأرصفة التي تتسكع عليها نون النسوة وتاء التأنيث..

لعنة.. أن تحب صاحبة الفنجان شاعر..يقصف القصائد ويحرق الأسئلة على طاولة منسية في زاوية لإحدى المقاهي..يتقن إشعال الحرائق ويعرف متى يطفئها..

أبجديته قادرة على إيقاظ الدهشة وسط الظلام وقادرة أيضًا على قتلي.....

هذه الفناجين لن تنتهي.. ثمة مقاهي لا تغلق أبوابها.

الرشفة الأخيرة

" ما من شيء، أو أحد بو سعه أن يوقف الزمن. ومع ذلك هناك أحداث كثيرة وصور تمر أمامنا (مناظر , أخبار , أفراح , وجوه , قراءات , مفاجآت , مآسٍ , أخطار , أيام حافلة , جموع) وبطريقة ما , تغير حياتنا ,، ولو بمقدار بضعة أجزاء من ألف , عن الوجهة المحددة. وبعد مرور أيام، أو شهور، أو أعوام , ربما نتأسف لأننا لم نسجل تلك الوقائع والأحداث.” .

ماريو_بينيديتي

من حزن حظي.. أكتب عن وطني كآخر وصية..أكتب عنهم كآخر وجع.. أكتب عن نفسي كآخر سطر..

ومن حسن حظي أكتب الآن عن القهوة كآخر رشفة،للقهوة نداءات ومعارك..اليوم أعلن فنجاني عن سقوط الملك في قبضة الصعاليك بعدما خاطب الموتى عن آخر إنجازاته العظيمة..لربما يتوجب عليه تقديم الذبائح الملونة لفقراء المدينة..فوحدهم يعرفون مذاق الجوع وصوت الرصاص، فلقائهم بالملك كان حصيلة صدف تكدست على أكتافهم لعقود من الزمن..

بينما في الجانب الآخر من الفنجان تظهر لي صورة بشعة..أحدهم رمقني بشدة، صرخ بو جهي، دع الملك ينام مطمئنًا أكتبي عن صوت النايات ونياشين الحرب القادمة!

اكذبي..اكذبي أكثر فأنت في نيسان أخبريهم أن قدح واحد من الحليب يكفي لإطعام أطفال القبيلة.

رسائل ضلت الطريق

العاشرة بتوقيت اللاشيء.. اعتادت أن تجلس بالزاوية وبجانبها مصباح خافت،موسيقى وتبدأ بسرد حماقاتها وهلوستها على الورق الذي تقوم بإرساله على ذات العنوان منذ أكثر من عامين متتاليين دون رد!

أمسكت بالقلم ثم رسمت خطًا عريضا لا يمثل أي شيء دائرة بداخلها الكثير من الدوائر بقع كبيرة وأخرى صغيرة،كل ما تفعله هو محاولة فاشلة في تشويه اللون الأبيض على الورق..

صفحة جديدة ثم كتبت له:

يا صديقي

كلهم في المدينة جائعون (لا للطعام)، بل للقطع المعدنية..حكايات جدتي عن عامل الحصادالفقير الذي تلطخ رغيفه بالطين ومع ذلك كان يتقاسمه مع صانع الأحذية هذه الحكايا جعلتني أغرس أناملي في عنق الصبر..

لصوص..

كلهم لصوص يرتدون الفضيلة،يغلقون المعابر والجسور ويفتشون جيوب البؤساء..فمنذ قليل أمسكوا ببائع الورد وسجنوا بائع الجرائد ثم قتلوا بائع العصافير؛ لأن عصافيره تغرد خارج أسرابهم،اعتقلوا الشاعر الذي تقاسم معي فنجان قهوتي ذات يوم،لأن أشعاره لا تتناسب مع

مــزاج شــيخ القبيلــة..الهروب مــن المدينــة تشــتهيه أقدامي،الهروب إلى حقول السنابل وثورة الراعي حيث لا نوافذ وهكذا نتمكن من سرقة الضوء والهواء..

السبت الموافق ٢٠١٣/٦/٢..

هي لا تعرف ما المقصود بهذه الرسالة، فهي كتبتها فحسب.. يوم آخر، ولكن خالي من الرسائل مليء بالشرود، وصمت حتى البغباء المرافقة لها بالغرفة خرساء لا تجيد تقليد الأصوات ولا إطلاق الصفارات كما تفعل البغبغوات الأخريات..

خروجها من غرفتها يشبه الهجرة من الوطن فخارج جدرانها هي غريبة ومغتربة فاقدة لهوايتها وملامحها، تجلس مع أسرتها من باب إسكاتهم وإيقاف سيل الأسئلة التي تنهال عليها،أكثر الأوقات راحة بالنسبة لها هي تلك التي تكتب فيها الرسائل..

عودة للورق ورسالة جديدة:

على أول سطر،كانت أول الخيبات حيث أنها لا تعرف من أين تبدأ الحديث، وعلى، أي شيء سوف تتحدث تركت السطر الأول لاحتمالاتها الأولى ثم قفزت على السطر التالي وكتبت:

يامن كنت لي قلب و روح إليك أكتب ولم يكن مصيري إليك..

ذوبان ملامحي وصمتي.. صخورهم وغرق أوراقي و وهمي.. فمن سيعاتب القدر؟! لا تنتظر لن أرسل لك، الرسائل الملغمة بشهوات القلم.. ولن نفترش سويا عشب القصيدة.. لن أشكي..لن أبكي..، بل سأرقص على أنغام أوجاعك، وأثمل على خصر الكمان.. ثرثرتي كثيرة.. وحماقاتي أكثر.. أريد أن أخرج من عالمي الضيق، وأصنع عطرا للنسيان ليتني ما عانقت ذلك الليل.. حتى عانقني الصباح..، ولكن لدي الكثير..الكثير.. لدي قهوة و أرق وأغاني حزينة بائسة.. ولدي شجاعة كافية للبوح.. وشجاعة أكثر للكذب..!

لا شيء يستحق توقيعي كن بخير إن أردت.

لم تفي بوعدها وعاودت الكتابة في اليوم التالي ورقة جديدة وحبر، بلون آخر ثم كتبت له:

سأحدثك عن صديق غامض.. مات دون أن يعرف ذلك.. كنت أطارد خوفه.. كما طاردت من قبل عصفورك.. عندما خرج من القفص.. وقرر السقوط من تلقاء نفسه.. قبل أن يسقط بين يدي.. كنت أظن أنه سينجو.. عندما أمنحه الفرصة الأخيرة، للتحليق مرة أخرى..، ولكنه سقط عميقا.. أعمق مما تخيلت وترك لي جناحين للذكرى.. كان يشبهني تماما.. يعد القهوة، وينسى وضع السكر.. ويقول لي إن لم يروقك مذاقها اسكبيها على رأسي.. وأنا لا أحب القهوة بلا سكر..

ومع ذلك كنت أجلس على شفاه حادة لفنجان مر وبعد كل رشفة أتساءل لماذا لم أسكبها على رأسه حتى الآن؟! ولم أجد بالجوار حجارة صغيرة.. ألقيها في وجه لأنه كان يضحك بينما أبتلع أنا قهوته المرة دون شكوى.. كان يملئ فراغ يومي بحماقاته ويشرد بين جدارين داخل غرفة معتمة.. وقام بزرع أسلاك شائكة على حدود عزلته.. ثم وضع لافتة (عدم الاقتراب) وأنا بالعادة لا أحترم القوانين.. لذلك اخترقت جداره العازل.. كان في عمق سقوطه نظر إلي بابتسامة ثم قال: صديقتي أنا أسبقك إلى الهاوية.. أنا من سيضللهم هذه المرة.. وفي ذلك اليوم اعتذرت له كثيرا لأنني لم أتمكن من إنقاذه عندما قرر أن يموت بجرعات هادئة من النسيان.

وهنا توقفت للحظات ثم مزقت رسالتها وألقت بها في سلة المهملات..صفحة أخرى وصمت أعمق من كل مرة ثم كتبت إليه مرة أخرى:

عزيزي ربما أخطأت في قول عزيزي وليكن لا يهم، لا يهم أبدًا..

اليوم سأقود المرايا بعيدا عنك لطالما أتعبك صمتها، وسأقنعك أن الظل لا يضع على رأسه قبعة.. بالأمس كانت الطاولة تهتز بشدة وانسكبت القهوة على الأرض

والريح بالجوار كانت قوية وكل الأشياء كانت تطاير وتسقط عدا أنت!! اعتقد النادل أنني فقدت عقلي عندما طلبت منه أن يحضر لي فنجانا آخر.. وأخبرني أن أمامي

فنجانين من القهوة لم أرتشف منهما شيئا بعد! ورغم أنني كنت أتطلع إلى الجميع وهم يحبسون أنفاسهم ويصرخون إلا أنهم كانوا هادئون.. هادئون للغاية!!

وقد مات أحدهم لأنه فقد ظله.. وذهب لينتظره على الجهة الأخرى.. والآن أنا أصعد السلم وحدي، ولا أعرف هل فقدت نفسي أم فقدت ظلي من ذهب لينتظر الآخر أنا أم هو؟!

لا أعرف شيئًا بشأن كلماتي حتى أنني لا أعرف هل حقًا تقرأها أم أنها تصل للعنوان الخطأ حتى هذه لا أركض كثيرًا خلف معرفتها كل ما أريده هو أن أفرغ كل ماتبقى منك بداخلي حتى لو كان بالكلمات التي لا معنى لها.

كن بخير أو لا تكن لم يعد يهم..

تمضي أيام وهي تكتب رسائل تمزقها وأخرى تقوم بإرسالها وأخرى لا تمزق ولا ترسل تكدسها في أدراجها من أجل اللاشيء،نظرة للمرآة وابتسامة ثم خرجت من غرفتها لتجلس مع أسرتها لتتبادل الضحكات والنكات على أشياء لم يعد لها مذاق..

ورقة صغيرة كتبتها وتركتها بجانب فراشها قبل أن تنام :

إلى الأصدقاء القدامى..

الذين سرقهم الغياب..

إلى الأصدقاء الذين ألهتهم الدنيا..

إلـى هـؤلاء الـذين جمعـتهم الصـدف بنـا وأخـذتهم منـا الحياة..

كونوا بخير أينما كنتم..

مقعد الغياب

الجلوس على المقعد المقابل للغياب، مع نصف محبرة ممتلئة،نصف عقل،نصف نبض.. روح تجاوزت الثلاثين ببضع خيبات ولم تتذوق طعم الحياة بعد!!

ماذا أكتب عني أو عنكم؟! فاقدة للشعور والورق ثم إن حبري يؤلمني.. ليس لدي متسع لرهانات خاسرة على ورقة بيضاء تمزقت قبل تلطيخها ببعض الأسود..

عندما ننطفأ فجأة نفقد شيئا منا لا يستعاد..كم مر من الوقت وأنا استجمع بعضي؟! يزج بي القدر في الورق دون أن أدري و وهم الكتابة يلاحقني أينما ذهبت! كل ما حولي يدفعني للغياب والبكاء ربما..!! ولكن مازلت متشبثة بالخيط الذي يلضم الكتابة بثوب الحياة..

تركت لهم جسدي داخل غرفة معتمة وذهبت إليه،حيث لا صوت.. لا جسد ولا وطن أيضا وبرغم أنه كان يشبهني تماما إلا أنه كان يتألم بعيدا عني، معه فقط أرتب عزلتي البيضاء على جداره الأسود رجل وحيد ومقعده فارغ.

ثمة غياب مؤلم يخدش ملامحنا بحرفية يوشم عليها تجاعيد الصبر ووجع الوقت الذي يمضي بدونهم، يرهقني صمت الأموات الذي يمارسونه معي.. لا بأس من بعض الرماد.. على الجانب الآخر زحمة أفواه تنتظر مستمع.. و هأنذا مستمع جيد أرتدي ظلي بأناقة مسافر وبخفة عابر

وبثقل مودع...! وكل ما أريده هو شخص منصف لايسرف في الغياب ولا يؤلمني حضوره ولكن أمنيتي أشبه بالمستحيل الذي يصلي الجميع من أجله ولا يأتي.

كنت دائمًا أبحث عن مخابئ الصمت فيهم وأنبش بها وفي كل مرة أعود للأوراق حتى ولو كانت مهترئة وهل هناك أوفى من الورق.. كائن كتوم يحتفظ بما داخله حتى وإن أوجعته الأبجدية..لست وفية بالقدر الذي يجعلني أتحمل ألم المحابر!

لذلك كنت أصرخ فيهم وبشدة صمتكم يؤلمني أريد سماع أصواتكم، أين أنتم مني؟؟ لما كل هذا الفراغ الذي يتركه الموتى؟؟

كنت دائمًا أذهب إلى المقهى وأجلس في إحدى الزوايا وأترقب مجيئهم ولكن دون جدوى يمضي الوقت ولا يأتي أحد، إلا أنه في أحد الأيام خيل لي أنهم يجلسون معي ضحكت وبكيت وثرثرت معهم ثم استفقت للحظة لأعود لنفسي مرة أخرى،لن أتعافى من الهلوسة ولن يحدث، لطالما تركت كائنات حية تتنفس داخل الورق وتمارس التيه.. أيتها الكائنات التي تطل على جرحي أرجوكم حاولوا أن تتخلصوا مني..أو ارفعوا الفناجين إلى أفواهكم وابتسموا!!

حدثوني عن سحابة اعتقلت على حافة فنجان.. أو عن الأبخرة التي تلهو بجانب النافذة..حدثوني عن المطر وحماقات الشتاء.. أعلم إنكم لستم هنا. ولكن هذا المقعد

يتألم..كونه فارغًا.وليس وحده فهنا بالبيت الكبير..هاتف قديم لم يعد يصدر صوتًا.. نافذة نصف زجاجها مكسور..زهرة جفت تربتها وذبلت..فراش هجره أهله منذ زمن.. سبحة معلقة وصور على الجدار تعاني من الغبار.. في البيت الكبير كانت الحكاية ذهبتوا جميعًا.. ولم تتركوا لي شيئًا..سوى معطف جدي!

ظل

لا شيء يجعلني أشعر بالخوف في الصباح ولا حتى في الليل عدا هذا اليوم، كيف لي أن أستيقظ لأجد أحدهم في فراشي لم أبالي لأنني أدركت بعدها أنني مصابة بالحمى.. وبحاجة لقهوة تلفح رائحتها رأسي لأستفيق..وبينما أعدها همس في أذني صوت عذب بأنفاس باردة تشبه الطقس بالخارج، " أنا ظلك على الأرض"..

لم أهتز للحظة لأنني أعاني من السخونة وهلوساتها تركت له المنزل وذهبت إلى حيث لا أدري..وبينما أسير على الطريق أوقفت بائع الفطائر ثم سألته.. ترى أين يسير الظل بالعادة؟؟!! أجابني يسير خلفك دائما..وذهب وهو يضحك بينما ظلي بجانبي وليس خلفي!

وربما من الجنون أن أكون وحيدة هكذا..لا لست وحيدة تمامًا ولا مع أحد..ولكن مواعدة ظل على فنجان قهوة، في مقهى عام شيء مثير للشفقة وربما للبكاء،كنت دائمًا أشعر أن الريح تعبر جسدي وتستقر في أحشاء المرآة المعلقة على الجدار هناك،كما أنني وللمرة الأولى أرى ظلا بربطة عنق..حتمًا سأفكر بنهاية سعيدة حتى لا يبدو علي عندما أخرج من هذا المقهى أنني مت منتحرة!!

كنت دائما أصغي للدخان المتصاعد من فناجين الآخرين، وهو يسرد عذابات البن والبقايا..ولم أستطع للحظة أن أصغي إلى فنجاني، كنت أحرك قهوتي ببطيء.

بينما الأشياء تتحرك مسرعة من حولي..بيوت أخرى تنمو داخل البيوت وترحل دون أن أكتشف من هم ساكنيها..

ما من شيء يحرض على التأمل سوى البخار المتصاعد من الفنجان وسواد الظل،انتظرت كثيرًا أن تعبر الشمس الفناجين لتدب الحياة في ظلي لأرتشف منه بعض الغموض..

في الليل أرتدي ورقة مليئة بالأحجيات وأفتش بالقبور عن البوح المدفون وأتساءل إلى أين ستحملني المعابر؟

وأزرع في وريد الذكرى نسيان هائل لأرقص على نبضي وأنصح ظلي دومًا أن يكن صبورا ليمنحنا الوقت عودة لأنفسنا.. ولكن خطيئتنا أننا نصدق المحال الذي لا يأت ونزرع في القلب ما يزهر قبل موسم اللقاء فيذبل عند منحدرات الغياب وعند أول ندبة حنين تسقط جميع الأوراق...أنا لا أعرف ما الذي أود أن أقوله الآن..

ولكن حتمًا سينسى العابرون هذا الدرب!!! من سيقف في النافذة مرة أخرى،الليل أم الذكرى؟؟

لا هذا ولا ذاك ربما سيقف هناك ظل عابر لم يكمل طريقه بعد.. وللحظة تذكرت أنني قررت يوما أن أتركه وشأنه(ظلي)، ولكن حتى الآن لازلت مدمنة النظر إليه!!

أشياء كثيرة تطاردني في طريقي إلى ذاتي وتقودني إلى غيابي..شيئا ما كان يشبه الموسيقى الأخيرة في مناماتي.. ظل يرقص بلا أقدام مع عصفور بلا أجنحة.

ورجل غريب يهديني زهورا سوداء بينما يرتدي معطفا أبيضا من الثلج.. يجب علي أن أستيقظ هذا لو كنت حقا نائمة.

نصف محبرة

فنجان حب مر،ورحلة لتسلق جدران الذاكرة..لأول مرة لا تغتال قلبي رائحة الياسمين!

ولا يحرضني الحنين على سماع صوتك.فملامح خيبتك جعلت حرفك أرجواني دافئ.. وفوضوية عطرك تكفي ..لتبادل النبض على الورق في كل مرة أنظر إلى النون وهي تفقد نقطتها وتصبح زورق بلا أقدام أرجوك لا تحدق في أبجديتي هكذا..ولا تكن كالأرض التي تختنق في الخريف من فرط الورق..

فهل رأيت يوما كأسا يموت من العطش؟! كان عليك إخراج الكائن الوهمي..الذي يسكن داخلك قبل أن تقول لي أ،ح،ب،ك،لماذا أنت هكذا لا أجد لك علامة استفهام بحجم سماء أخرى..يوم بارد يناديك عبثا ولم أودع فيه أحد..أتعلم أن قلمي أعزل حتى من الصراخ على أوراقك..هل تظن أنني سأكتبها لك.. أ،ح،ب لقد سقطت الكاف ولربما كانت كافية لمطاردة جيش أفكارك في اللقاء القادم.. ربما الهزائم تبدو رائعة،رائعة جدا فقط عندما يكون المنتصر (أنا)..!!

لا عليك.. فأنا دائمًا أبحث عن فصل خامس وسماء ثامنة،وربما أكون بحاجة للانتماء إلى وطن لا يمارس فنون تعذيب الأبجدية،بحاجة لعش عصفور مهاجر لايفكر بالعودة..سنشرب سويًا نخب انتصارك الأول وربما

الأخير،سأعترف لك نعم تمنيت للحظة أن أكون ذاك القلم الذي يمارس أحقيته بالبوح على أوراقك..

دعني أعزف لك على أول حروف الأبجدية ((أَلِف))

ألف علامة تعجب و استفهام تهاجمني

أفتش عن فسحة في ردهات الذاكرة،

أول محطات النسيان.

أكره المطارات..

ألعن الحقائب..

أنا الجريمة

أنا المذنب

أنا الجاني

أنا المجني عليه

أنا القاضي

أنا هو الذي يكتبني الآن ويكتبك..

أرأيت كم هو سهلاً اللعب على السطور والآن من أين تتغذى محبرتي سأخبرك سرا ... الكتابة تشبه المخاض ورجائي الوحيد ألا تنجب لي على الورق خطيئة..

ولكن أمهلني لحظة حتى أرسم على ملامحي ابتسامة التعافي،لأواصل الزحف على مداد صفحاتك..وإن قل المطر على نافذتك أو كثر لن يمحو الأثر..

نوفمبر

على عتبات نوفمبر تركت أوراقها وعطرها وأغانيها بعدما خانتها أبواب الصيف..استبدلت رداءها الواسع الخفيف بمعطف الأمل الثقيل..لتستقبل شتاء آخر،إنه موسم الرسائل التي لا تصل،رائحة عطر منسية على جدار الذاكرة..أوراق مكدسة على مقعد الانتظار..

ثمة أشياء تهرب من الصقيع وتقبع في قلبها،بين البوح والصمت ورعشة الشفاة..ظنت أن الأقدار غير عادلة عندما جعلت بينها وبينه ألف سور وباب!..

كانت تنتظره تحت ظل وردة! وترتشف قهوتها بدون حليب.. تقرأ كتابا قرأته من قبل عشرات المرات..

وتتوكأ على الثرثرة بدلا من الصمت.. تتعثر متعمدة بكلمات الحنين والتي لطالما هربت منها كثيرا..كانت تتمنى أن تحلق ولا تسقط أبدا..عفوا هذه الأمنية خذلتها سبع مرات من قبل!!

كثيرًا ما كانت تدعوا الله أن تتبادل معه الأدوار.. تغيب هي وينتظر هو!

الغياب يمنحها فرصة التفكير في خريف آخر..

ربما تنتظر ذات الحافلة التي وضع فيها رجلًا رأسه على كتفها من فرط التعب وغط في النوم بعمق.

ولكن كانت تتساءل في كل لحظة كيف له أن يفعل ذلك؟!

غضبها منه جعلها تفكر في حافلة آخري ربما تلك التي سقطت بداخلها سيدة عجوز .

تعاني من الزهايمر وانهالت عليها بالشتائم القبيحة ظنًا منها أنها ابنتها،حينها رمقها الجميع بغضب،فأقسمت لهم أنها ليست أمها.

كانت تكره الحافلات وثرثرات العابرين،وأحاديث الغرباء..

كانت تريد حافلة لتراقب فيها صوابه عندما يكون على خطأ..لا يستقلها رجل متعب ولا تسقط بداخلها سيدة الزهايمر..

تريزا

ذكرى عابرة

*كان يجلس على المقهى ويضحك برفقة أصدقائه وإذا بصوت العندليب يشدو..

حبيبها
لست وحدك حبيبها..
أنا قبلك!
وربما جئت بعدك
وربما كنت مثلك!
فلم تزل تلقاني
وتستبيح خداعى
بلهفة في اللقاء
برجفة في الوداع..

فسكتت ضحكاته ثم بكى قلبه وترك أصدقائه وذهب إلى حيث لا يدري!! وفي الجهة الأخرى كانت تتذكر ملامحه التي وشمتها كلماته على الورق..

تريزا العالم الصاخب بالنسيان تعاني من الزهايمر والذي يمنعها من تذكر أي شيء حتى تلك الأشياء التي لامست قلبها،وهي أيضًا جدة يوسف الشاب الوسيم الذي لا

يتخلى عن سلسال والدته ودائمًا لا يفارق صدره،أحيانًا يترك لنا الأموات أشياءهم ليعذبونا بها.. ربما!!

غرفة يوسف أشبه بالحلم فجدرانها الأرجوانية تعطي ملمسا ناعمًا لكل شيء ,الأريكة، النافذة،الطاولة المستديرة بالمنتصف، جدائل الياسمين المتدلية على النافذة من الخارج تمنحها عطرا مميزًا،أحيانًا تأتي صباحات مكدسة بالحنين كهذا الصباح الذي سجن يوسف خلف نافذة الذكرى لساعات طويلة.. سحب الكتاب الذي كانت تفضل قراءته فبين صفحاته الكثير من الرسائل التي تركتها له،في الورقة الأولى كتبت له:

أنت أقوى من:
الخيبات
الخذلان
الألم

و أضعف من:

الحنين
النسيان
والقلم

أنا مثلك ينتابني الضعف عند رؤية الحبر الأسود وهو يتلاعب على سطور صفحة بيضاء أيقنت اليوم أن سواد الحبر فتنة وبياض الورق إغراء.

وهنا توقف للحظات ليتذكر حديثًا قد دار بينهما ذات لقاء:

- يوسف لا تقل الحقيقة!

- لماذا؟؟

- لأنهم سيغضبون،سيغضبون عليك وتنهمر عليك الشتائم من حيث لا تدري.

- وماذا أفعل أكذب؟!

- لا.. لا تكذب.. لا تقل شيئا.. هكذا أفضل..

أغمض عيناه للحظات وأيقن أنها كانت على صواب وكان يجب عليه ألا يخبر أحدا بالأمر، أو على الأقل ألا يتركها وحدها في مواجهة الجميع دمعة عابرة شقت طريقها من عينيه وسقطت على الورق، وهنا يسحب الورقة التي تحمل الرسالة الثانية:

"البعض تستيقظ له الكلمات" وأنت من هؤلاء لقد طال بك الغياب وقد كان الوقت يمضي ولا يمضي .

الساعة الآن العاشرة مساءً ولكن بتوقيت الشتاء الماضي لا زالت رائحة عطرك عالقة بزوايا الذاكرة،

متشبثة بكف الحنين وملتحفة بستائر الغياب،أنظر إلى ساعتك متأخرة عام ونصف ودقيقة من الاشتياق.!أين أنت؟"

ثمة أوراق تعبث بنا وتلقي بنا في بئر عميق يصعب علينا الصعود منه بين يومًا وليلة،لذلك كان يسحب رسائلها من الكتاب واحدة تلو الأخرى مستمتعًا بوجعه وهو يقرأ الثالثة:

ذات نهار قرأت هذه الكلمات في إحدى الجرائد

"" حين مر العابرون عليها ذات مساء..
لم تكن هي...كانت تضفر جدائل الحزن..على كتف السنين..
تركوها.. على مشارف الطرقات
نسوها.. وتناسوا كم تقاسموا معها فتات الخبز..
وكم.. تهامسوا بالضحكات سويًا.. ومضوا والمطر يئن خلفهم ""

أتعلم أن تلك الكلمات تذكرني دائمًا بتريزا ولا أعرف لماذا أراها كل ما قرأتها هل انتابك ذات الشعور مثلي أم أنني أغرق وحدي، أتعلم كانت كل ما تراني تسألني أتبكين؟ فأقول لها :

لا أمسح عن عيني غبار غائب تذكرتـه.. أنـا لآ أبكـي!!
كانت تطيل النظر إلى وجهي وكأنها تخبرنـي بـأنني كاذبـة وإني حقًا أبكي،يوسف متى ستأتي؟؟

كانت يداه تتلهف وبشدة لسحب رسالة أخرى فكم يعشق خط يدها وذلك النبض الذي تركته له على الورق ثم أنه لن يغفـر لنفسـه خطيئتـه لـذلك يقـرأ أحرفهـا المغموسـة بقلـب الوجع دومًا، وهنا يتوقف قليلًا ثم يتابع القراءة:

يوسف أعلم انك لـن تسـألني ولكـن أرجـوك لآ تسـألني كيف أمسيت؟!.. فهذا المساء ليس بخير..

الشوارع،
البيوت،
الأزقة،
الأرصفة،
أوراقي،
كلماتي،
أشيائي، وأنا أيضا لسنا بخير!!!!

وتلـك الطاولـة التـي يتكـأ عليهـا الحـزن هنـاك لا تتسـع لمقعدين..

وهذا الفنجان الملطخ ببقايا القهوة يتلاعب بمزاجي..

إنه أيلول الـذي لا أعـرف لـه ملامـح ملـيء بالأحاديـث الموجعة التي تحمل رائحة البكاء .

والان دعني أواعد ظلي على فنجان آخر لنتجرع سـويا خيبة الغياب.." .

يلملم روحه ويترك الكتاب ثم يتساءل كيف لي أن أكون بتلك البشاعة، كيف لي أتركها،كيف لي أن أفعل كل هذا بها وبقلبي؟؟؟؟ وكأن علامات الاستفهام تركض خلفه كما يركض الذئب الجائع خلف فريسته..

لم يتوقف عن ذبح نفسه فأخذ ورقة أخرى ولكنها جاءت كمسكن موجعا لأنفاسه:

أتذكر قول نزار /"وسيبقى الياسمين أبيضا مهما خانته الفصول "

صدقني ستشهد جدائل الياسمين المعلقة على تلك النافذة على كل الكلام.. كل الوعود.. كل الرسائل والكلمات

فكيف لها أن تنسى بعدما أمطرت عليها غيمتي وامتزجت تربتها بملح دموعي..

لا زال هناك متسع لرسائل أخري..كلمات أخري خالية من الوعود.. من عبثية الاشتياق.. من حماقات السهر..

و خالية من الحب، استنشاق عبقها سيكون موجع،موجع يايوسف!

ثم يتوقف عن قراءة الرسائل ليعود لذاكرة الأحاديث التي دارت بينهما، يتذكر المكان،الرائحة، الصوت،لمستها كل شيء حاضرًا عدا هي، يئن جرحه فيستمع لصوتها حين قالت:

- يوسف،رمادية هي الأيام!

- لا ليست الأيام،نحن فقط تائهون بين الأبيض والأسود..

- أبيض وأسود، وهل يعطيك القدر فرصة الاختيار بينهما؟!

- أنت تحبين الحزن بل ربما ما هو أسوء من ذلك تقدسيه!! لذلك الرمادي لونك المفضل.

- الحزن يطهرني من خطيئتي!

- أي خطيئة؟!

- عشقك خطيئة،ذنب لا يغتفر، وفي كل ليلة أغتسل بأحزاني علّها تطهرني مما أنا فيه!

- أتريدين تطهير قلبك من عشقي؟!

عليك أولا بالصوم عني، أفعلي معي كما يفعل راهب متعبد زاهد في صومعته، تخلي عن ملذات الدنيا، ابصقي من فمك كل مات العشق على أرض عاقر حتى لا تنبت لك عشقا أخر،

اقتليني أو أذبحيني افعلي ما شئت وصدقيني حتى لو طالت أحزانك عنان السماء لن تطهرك من عشقك لي !

يتوقف ليأخذ هاتفه القديم وينبش في الرسائل كما لو كان ينبش في قبره.. وقرأ على نفسه:

لم أكن أعلم أن في عشقنا حرب!!!
لم أكن أعلم أن الموت كان قريب منك!!!
لم أكن أعلم أن كل ما حدث كان سيحدث!!!

ولكن
لآ يهم لا زلنا معا،،
بعثت لـه بتلـك الرسـالة عنـدما علـم الجميـع أن يوسـف يعشق فاطمة، أكمل الركض خلف الرسائل فأبتسم لهذه:

أكتب إليك قبل منتصف الليل بخمس دقائق
مذكرات فتاة حمقاء
عنوان يليق بدفتري الأسود الجديد ودائما رائحة الورق تثير شهية حبري!.
سأرتب على سطوره الأولى خيبتي..
و من بعدها سأسرد حماقاتي..

أنا وأنت بالمنتصف لا فراق ولا لقاء..
فكم يلزمني من الأنفاس حتى أفرغك من ذاكرتي؟!
بـل كـم يلزمنـي مـن الوقـت حتـى تحتـرق صـورتك بداخلي؟!
وكم يلزمني من النبض حتى يقتنع قلبي أن الأشياء التي ترحل لا تعود؟!

كانت رسائلها من فرط حزنها تضحكه وتبكيه لـم ينجـو من الورق ففي كل مرة يمسك بالرسالة الأولـى لا يتركهـا إلا عندما يخطو من فو ق عتبات الأخيرة لذلك أكمل قارئا:
حبيبي يوسف/

هذا المساء يشبه الرسالة الطويلة الحمقاء، التي أفرغت على سطورها أبجدية تائهة،محشوة ببعض السذاجة.. كأن أكتب لك في بدايتها عزيزي وأنت لست عزيزي.وفي نهايتها أتمنى لك السعادة وفي الحقيقة أنا أتمنى أن تقضي ليلة بائسة مثلي.. ومنتصفها مليء بالهراء والأكاذيب،أنا أحب الكذب عندما تصبح الحقيقة عارية باحثة عن شيء ما يستر عورتها ولا تجده!

أتعلم سقطت مني حروف قليلة سهوا في مكانا ما بهذه الرسالة كتبت لك""أحبك""،وكانت أكثر الحروف الصادقة في تلك الورقة الطويلة فيما عدا ذلك لا تصدق ما أكتبه دائما!

يوسف كن بخير ولا تغيب..

يترك الكتاب والهاتف ليعود مرة أخرى لأحاديثها فيتذكر:

- أتعلم يا يوسف ما الذي أوجعني.. أنك لا زلت تفتش عن بقاياها بداخلك.. لا زلت تكتب عن ذاك الحب الأول..

- فاطمة أتدرين لماذا لا ننساه؟!

- لأنه الخيبة الأولى،الوجع الأول، الخذلان الأول، الجرح الأول، وربما لأنه اللمسة الأولى ,القبلة الأولى، الحضن الأول، السعادة الأولى .

- هو كل ما ذكرتيه وكل ما لم يذكر، حبي الأول ليس الأخير.. أنت آخر محطاتي.. آخر أوجاعي.. آخر عشقي..

ثمة وقت نعبر فيه من ممرات الذاكرة تمامًا كمن يعبر من متاهة كل همه أن يجد سبيلًا للخروج ويوسف لم يحاول أن يجهد ذاكرته في البحث عن المخرج كان يغمس أنفاسه فيها أكثر بل ويتوقف أيضًا بالردهات الأكثر عتمة وهنا يسحب أنفاسه ليتذكر حديثًا بينها وبين تريزا فتنغمس روحه فيها أكثر:

-تريزا إلى أين يأخذك زهايمرك اللعين؟! علام تنظرين؟! يا امرأة أنهكت الذكرى حتى أصابها النسيان
-من يسكن هناك بتلك النافذة المغلقة؟!
-ذكرتيني بفيروز أنا عندي حنين ما بعرف لمين.. تلك النافذة التي ماتت عليها أغصان الياسمين للشاب الوسيم الذي لا تتشابه أخلاقه مع ملامحه أبدا.. و والده المسن!
- لماذا تتحدثين عنه بطريقة غير مهذبة؟! هل هذا ما تعلمتيه بالمدارس قلة الأدب؟
-ما فعله بوالده يجعلني أحتقره كل ما نظرت إلى أغصان الياسمين التي أصابها الجفاف من فعلته لقد ألقي به في دار العجائز الفرق بينك وبينه أنه لا ينسى!
-على من تتحدثين؟؟!

-على صاحب تلك النافذة
-من هو؟؟؟
- لآ إله إلا الله أتعلمين لو جلس بجانبك مؤمن سوف يلحد..

وهنا يتذكر ضحكاته وضحكاتها ودهشة تريزا فكم هو قاس أن تتبادل الحديث مع عجوز مصابة بالزهايمر. يأخذ هدنة ولكن الذكرى كانت أقوى من أن يؤجلها فتذكر حديث آخر:

- هل سمعت من قبل وعودا تم الهمس بها لكفي الليل وأصبحت في طي النسيان قبل بزوغ النهار؟!
- نعم سمعت وعد أحدهم لي بالبقاء و رحل! ولكن لما هذا السؤال؟!
- أذكر ذات ليل وعدتني أن تبقا والان أراك تستعد للرحيل!!
ثم يسحب ورقة أخرى تحمل ألمها بين سطورها هكذا قضى الليل عليه بين ذكرى وحديث ورسالة لم يترك له متسعا للهرب،قرأ بصوت مرتعش:

"يوسف تراكمت الأوراق هنا وعبثا أريد ترتيبها، عبثا أريد طيها فمنذ عام وأنا أكتب، وكم أنا بارعة في تكديس الأبجدية

وتخزينها،لأعاود قرأتها مرة أخرى عندما يصاب قلمي بموسم الجفاف!

حقا كانت هذه مأساة،أن نفترق هكذا ونحن لا زلنا على قيد العشق ..أنت رحلت لحمايتي منهم وأنا هنا أرتب خيبتي على جدرانهم وأقيم الحداد".

تلهث أنفاسه هنا فيبكي بحرقة لقد حان وقت الرسالة الأخيرة والتي كتبتها له بعدما فشلت الحناجر في إيصال صرختها:

"الرسالة الأخيرة"

ما الذي حدث عندما تلاقت أعيننا ونسيت أن أغلق أبواب شهواتي كما كنت أفعل في كل مرة ألتقيك فيها.

ولكن هذه المرة كان بعدك عني يمزقني،كنت كل ما هممت بالتفكير في لمسك أذهب وأغتسل وأصلي وأبكي،أبكي كثيرا ثم ألعن نفسي لأنني لا أمتلك تلك القدرة التي تجعلني أصوم عنك!

واليوم تركت نفسي لنفسي ولك ماشئت مني وفعلنا كل ما لا يجب علينا فعله، كنت بحاجة أن أضمك،أتنفس أنفاسك وأحبسها في صدري كنت أريدك بقدر ما تشتهيني فبعد تلك اللحظات لم يعد عشقنا طاهرا كما عهدنا سويا!

لم أعد أحتمل سماع صوتي وأنا أقول لك أحبك فأتذكر ذاك الفراش الذي جمعنا وفرقنا، أتذكر صوتك الشاحب وأنت تبكي،وتقول كيف فعلتها،أتذكر أنفاسي المتقطعة من

فرط اللذة التي أصابتني بين أحضانك،كم أحببت وكرهت تلك اللحظات.

""سامحيني"" هي الكلمة التي تركتها لي وذهبت إلى حيث ربك، تركتني هنا وذهبت لتجلس أمام كاهنك المسن وتعترف له بخطيئتك وتغتسل بالماء المقدس اخبرني كم من الشموع سوف تشعل بل كم صلاة سوف تصليها ليتعطف الرب ويغفر لك خطاياك الماضية..

أنت اخترت طريقك وها أنا هنا أرتب خيبتي وموتي معا، كان زهايمر تريزا أوفى منك حيث أنه لم يتركها قط.

ستجد رسالتي عند عودتك، إن عدت،سأترك لك دمي ملطخا على فراشي وسأنتقي لك أغطيتي البيضاء و وسائدي فاتحة اللون ستتذكرني دائما ،لن تنساني حتى وإن أصبحت راهبا سأبقى بداخلك عشقا وخطيئة لا تغتفر!!

عاهدتك أن أحبك حتى آخر أنفاسي،حتى آخر قطرة في دمي وها هي آخر أنفاسي سوف تشهد أني أحببتك حتى منتهاها... كن راهبا أو قديسا كن كما تريد وأنا سوف أرقد هناك بين الأموات بسلام في عالم آخر جديد...

حبيبتك فاطمة الاسم الذي لطالما أزعج العالم عندما وضع بجانب اسمك على شجرة الصنوبر.. لا تنساني.. أحببتك حتى الموت..